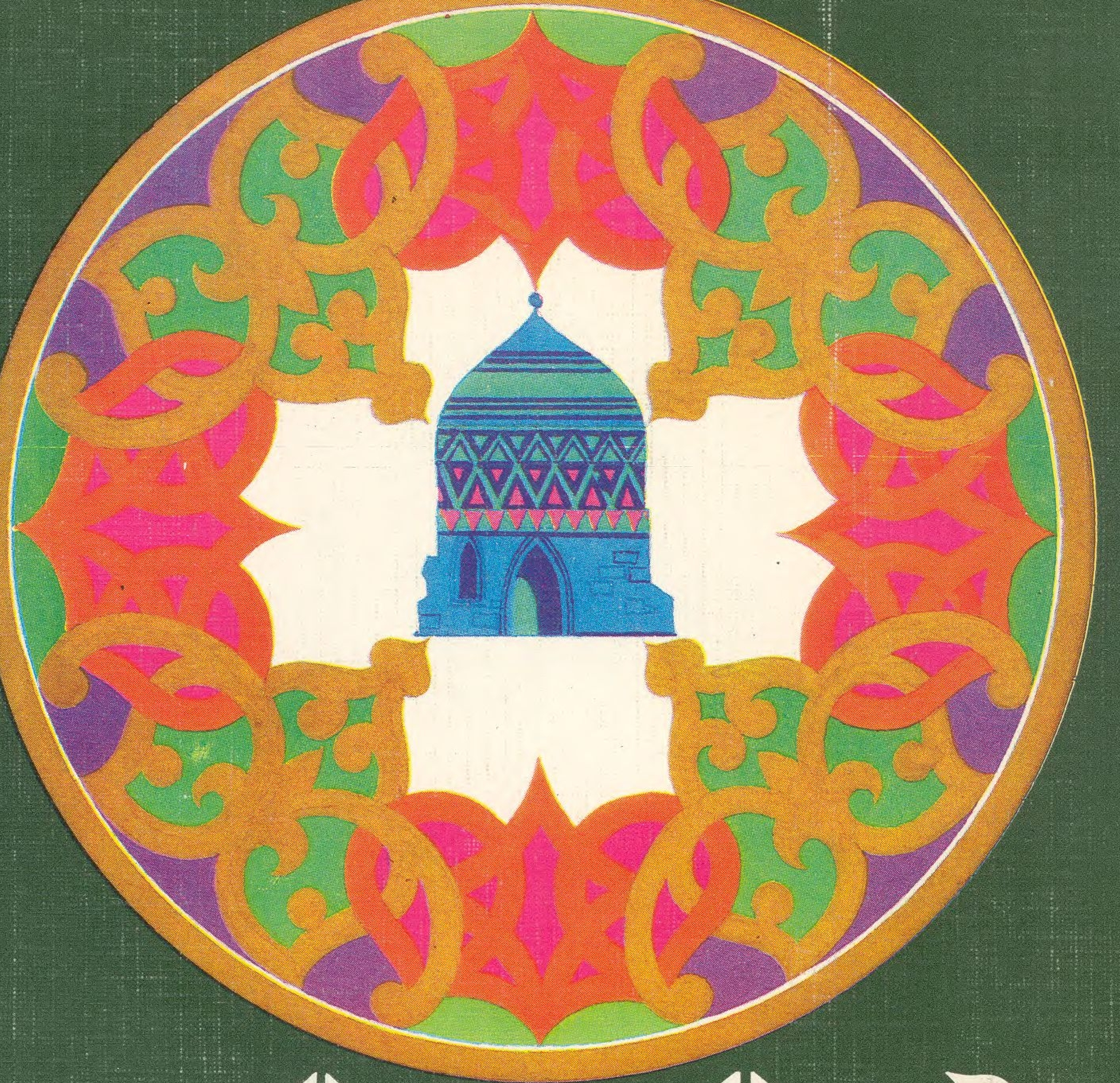

كنوز العبقرية البشرية

التراث الثقافى الاسلامى
فى الاتحاد السوفيتى

بوريس يزييف
محمدجان ميرزامحمدوف

كنوز العبقرية البشرية

التراث الثقافى الاسلامى فى الاتحاد السوفيتى

دار نشر وكالة «نوفوستى»

80102
4902020000
© دار نشر وكالة «نوفوستي»، ١٩٨٥
حررت المادة بتاريخ ١٩٨٥/٦/٢٦

في كل عام يأتي ملايين الناس من جميع أنحاء العالم الى الاتحاد السوفيتي ليروا مدنه وقراه. ويشاهدون المناظر الطبيعية ويأخذون فكرة عن منجزاته الاقتصادية، والعلمية، والثقافية، والفنية، والرياضية. ومعظم هؤلاء الناس تستضيفهم انتوريست وكالة السياحة الرسمية، حيث تقدم العديد من الرحلات، التي تأخذ احداها السياح في جولة الى مدن وقرى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية وهي اوزبكستان وطاجيكستان وتركمانيا وقيرغيزيا الغنية بآثار الثقافة الاسلامية وكنوزها الاخرى. وليس في هذا ما يثير الدهشة، فقد قامت هنا في القرون الوسطى عواصم ثلاث دول قوية — هي خوارزم (من القرن العاشر الى الثالث عشر) وأمبراطورية التيموريين (القرنين الرابع عشر والخامس عشر) وخانات بخارى (منذ القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين) — جلب حكامها الحرفيين المحليين والصناع من كافة المناطق الخاضعة لهم لبناء القصور، والمساجد، والمقابر، والمدارس والفنادق.

وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ بوقت قصير، وعندما كانت الجمهورية الاشتراكية الفتية تصد هجوم الدول الامبريالية، اقترح فلاديمير لينين، مؤسس الدولة السوفيتية، بعد علمه بأن أبنية سمرقند التاريخية المشهورة على نطاق العالم قد حل بها الخراب اقترح أن تخصص الاموال من أجل ترميمها.

ويرتبط كذلك باسم لينين مرسوم الحكومة السوفيتية فى ٥ اكتوبر ١٩١٨، الذى دعا الى «المحافظة على الفن والكنوز القومية ودراستها ونشرها على اوسع نطاق». واليوم أصبح ذلك قاعدة دستورية وفقا لنص المادة ٦٨ من الدستور السوفيتى التى تقول بأن «الاهتمام والمحافظة على الاثار التاريخية وغيرها من القيم الثقافية هو واجب والتزام لمواطنى الاتحاد السوفيتى». وفى ديسمبر ١٩٧٨ أقر السوفيت الاعلى للاتحاد السوفيتى، أى البرلمان السوفيتى، قانونا حول حماية واستخدام الاثار التاريخية والثقافية.

وتخصص سنويا اعتمادات حكومية ضخمة لاجل اعادة الاثار الثقافية الى حالتها الاصلية — وصلت الى ١٠ ملايين روبل فى أوزبكستان وحدها فى الفترة من ١٩٧١ الى ١٩٧٥، بالاضافة الى ٨ ملايين روبل أخرى لعام ١٩٨٠. وما عدا ذلك تقدم جمعية الاتحاد السوفيتى التطوعية للمحافظة على الاثار القديمة وكذلك الجماعات الاسلامية تبرعات ضخمة للمحافظة على المساجد وترميمها.

وكنوز الثقافة الاسلامية الموجودة فى الاتحاد السوفيتى لا تشمل الروائع المعمارية فحسب، وأنما تشمل كذلك اكتشافات علمية مشهورة، وأعمال فنانين وشعراء فى العصور الوسطى، ومجموعة واسعة من أعمال الفن الزخرفى الشعبى والفن التطبيقى.

أحجار كأنها أغنيات

عند أول زيارة لسمرقند، أو بخارى، أو خيوة، أو طشقند فى آسيا الوسطى السوفيتية، أو لاورجونكيدزه أو ديربنت فى شمال القوقاز، أو لباكو وناخيتشيفان فى ما وراء القوقاز أو كازان فى منطقة الفولجا، يذهل المرء امام روعة وفخامة المدارس والقصور والمساجد والاضرحة الموجودة هناك. ويبدو ان الصناع الذين أبدعوا هذه العجائب قد اعتمدوا على كل الوان الطبيعة فى رسومهم، وتغلبوا على تعقيدات الالوان فى التصميمات التى نحتوها فى الرخام أو الحجر، بينما الأزهار الرشيقة التى تزين البوابات تثير جاذبية غريبة وتشيع الارضيات الرخامية المنقوشة جوا من البهجة.

وكل هذه الاعاجيب، التى صنعتها أيدى الحرفيين المهرة لاجيال مضت، ينبغى النظر اليها اليوم فى سحرها الاصلى، رغم أن هذه الروائع كانت منذ ما يزيد على ٥٠ عاما أما خرائب أو على وشك الانهيار، وبدا أنها لن تبرأ من الجروح التى أنزلتها بها الجحافل الاجنبية، والنزاعات الاقطاعية والكوارث الطبيعية.

ولحسن الحظ، لم يحدث ذلك، ففى تاريخ هذه المدن، التى تمتلك كنوزا معمارية اسلامية تعادل عجائب مصر، والهند، والصين، واليونان القديمة، وروما، بدأ فصل جديد عندما أقام عمال وفلاحو البلاد، الورثة الطبيعيون والشرعيون لكل تراثها الثقافى الحكم السوفيتى. فخلال السنوات التى انقضت منذ ثورة اكتوبر ١٩١٧ جرى ترميم واحياء مئات الاثار المعمارية الاسلامية.

وفى هذه الصفحات المحدودة ربما لا يمكننا أن نتعرض لكافة المدن والمعالم التى يمكن تعدادها. ولذلك، فسوف نصف أهمها، وستكون سمرقند أول وقفة لنا فى رحلتنا الدراسية.

* * *

فى تاريخها القديم الذى يمتد ٢٥٠٠ عام شهدت هذه المدينة الشرقية العظيمة جحافل الاسكندر المقدونى، وفرسان الامراء العرب والحشود البربرية لجنكيزخان وغيرهم من الفاتحين، الذين دمروا ونهبوا ما أبدعته عبقرية الانسان. ورغم

ذلك نهضت كالعنقاء من الرماد، تزينها قصور أكثر جمالا.

وفى أواخر القرن الرابع عشر جعل تيمور، الذى عرف باسم تيمور لنك من سمرقند عاصمة لامبراطوريته الواسعة. وسعيا منه لان يحولها الى مدينة ضخمة ذات شهرة عالمية، شيد بها مبان فاقت فى فخامتها وبهائها كل ما صنعه البشر حتى ذلك الوقت. فقد بنى مثلا مزولة ضخمة وقناة لنقل الماء لا تقل عن قناة روما، ومسجد بيبى خانوم الفاخر، ومقبرة جور أمير للتيموريين ولها قبة ضخمة مغطاة ببلاط فى زرقة السماء، ومقبرة شاهى زنده الجميلة الفريدة، ومدارس اولوج بيك وشيردور وتيلاكارى.

وقد أشار دون روى جونزاليز ديكلافيجو النبيل الاسبانى والسفير الذى بعث به انريك الثالث لكاستيل (١٣٩٠ — ١٤٠٦) الى تيمور، عندما وصل الى سمرقند اشار الى «أنه توجد بساتين وكروم كثيرة بالمدينة حتى أنه عندما يراها المرء يجدها وكأنها تتوسط غابة حقيقية من الاشجار الباسقة». وفى الواقع يمكننا أن نقول نفس الشىء اليوم، بعد ما يزيد على ٥٠٠ عام.

فعلى الجبل الصخرى شوبان أتا فى الضواحى الشمالية للمدينة توجد مقبرة بنيت فى ثلاثينات وأربعينات القرن الخامس عشر لتخليد ذكرى «أبو الرعاة» الاسطورى. وهو معبود يقدسه الشعب، وبخاصة مربو الماشية ومن هذا الموقع ترى منظرا رائعا للمدينة باحيائها السكنية، وجامعتها، وكلياتها، ومصانعها ومدارسها، ومسارحها ترقد وسط الخضرة، التى ترتفع فوقها متلالئة فى ضوء الشمس القباب الزرقاء للمدارس، والاضرحة، والمآذن، ويطل عليها أفخم المساجد الاسلامية كافة، وهو مسجد بيبى خانوم.

وهذه التحفة الفريدة للعمارة الاسلامية، مثل العديد من الاثار القديمة الاخرى فى سمرقند، تدور حولها الاساطير، وأوسعها انتشارا تلك التى تربط بناء المسجد باسم زوجة تيمور المفضلة بيبى خانوم التى سعت، كما يقال، لبنائه لزوجها تخليدا لذكرى عودته من حملة عسكرية ويقال أنها كلفت أفضل معمارى فى البلاد بأن يأخذ هذا العمل على عاتقه. وقد فتن المعمارى بجمالها فوقع فى حبها، وعندما كان تيمور على وشك العودة، اصر المعمارى على الحصول على قبلة فى خد بيبى خانوم لكى يكمل البناء فى حينه. وأخيرا استسلمت أمام توسلاته ولكنها غطت وجهها بيدها. مع ذلك، تركت حرارة القبلة علامة على خدها المتورد. وعندما عاد الحاكم الرهيب نظر الى المسجد الذى بنى حديثا باعجاب شديد، ولكنه غضب عندما رأى أثر القبلة على خد محبوبته. وخاف المعمارى من موت محتوم فصنع لنفسه زوجا من الاجنحة، وصعد الى قمة مئذنة المسجد وطار الى مشهد فى فارس كما تقول الاسطورة. وفى الواقع، فان بيبى خانوم والقصة التى تدور حولها مجرد اختراع، لان الاسم الحقيقى لزوجة تيمور المفضلة هو ساريا ملك خانوم. أما فيما يخص المسجد، فقد بناه تيمور بعد عودته مع المغانم الضخمة التى عاد بها من حملته فى الهند.

والصحن الداخلى للمسجد الذى يبلغ طوله ١٦٧ مترا وعرضه ١٠٩ امتار، والذى يعتبر

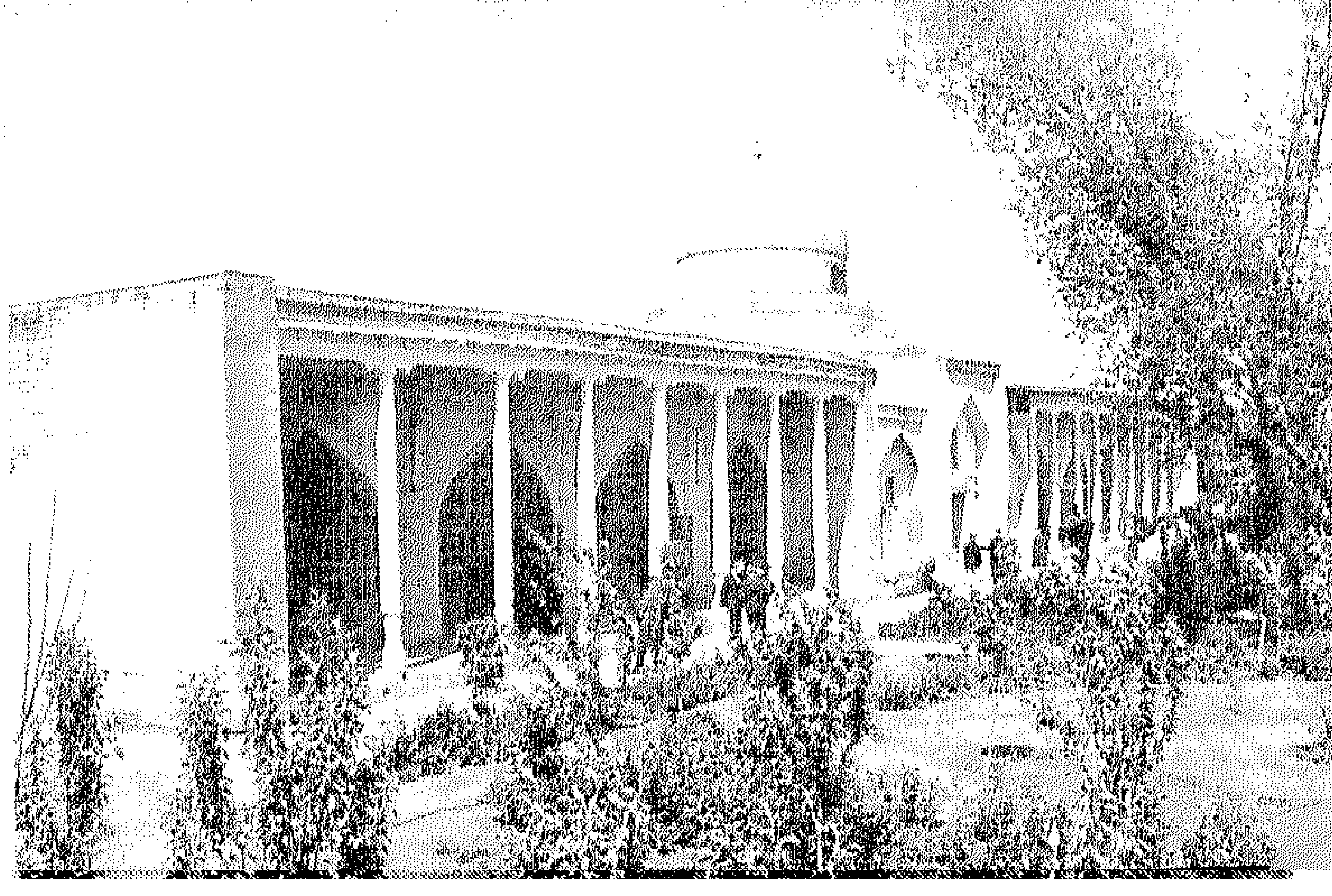

كلية دينية فى طشقند.

منظر لمركز مدينة طشقند اعيد بناؤها بعد زلزال عام ١٩٦٦.

طشقند. مقر الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان.

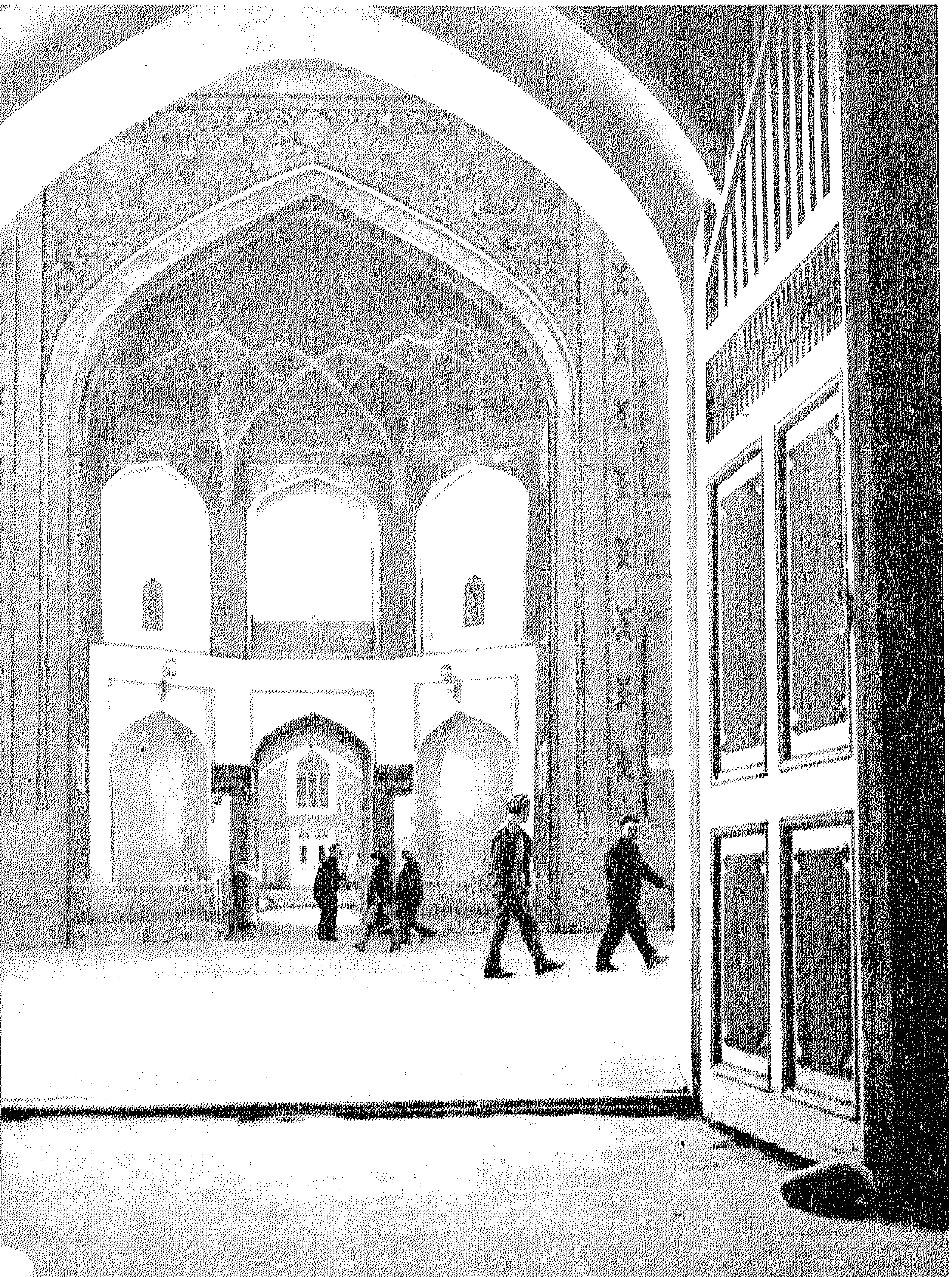

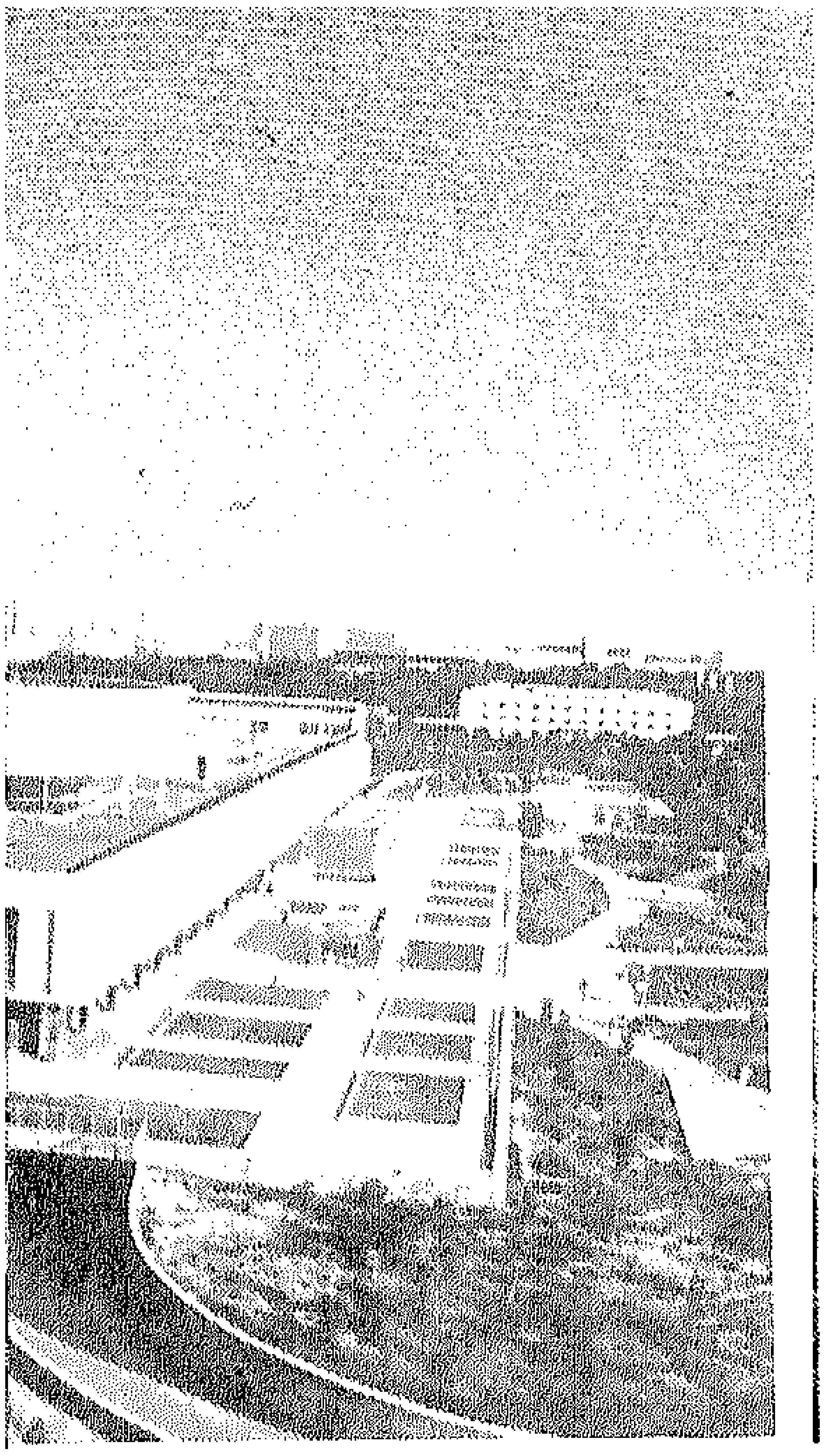

مركز مدينة نوائى التى اقيمت فى
رحاب صحراء كيزل كوم بأوزبكستان.

جامع كاليان فى بخارى.

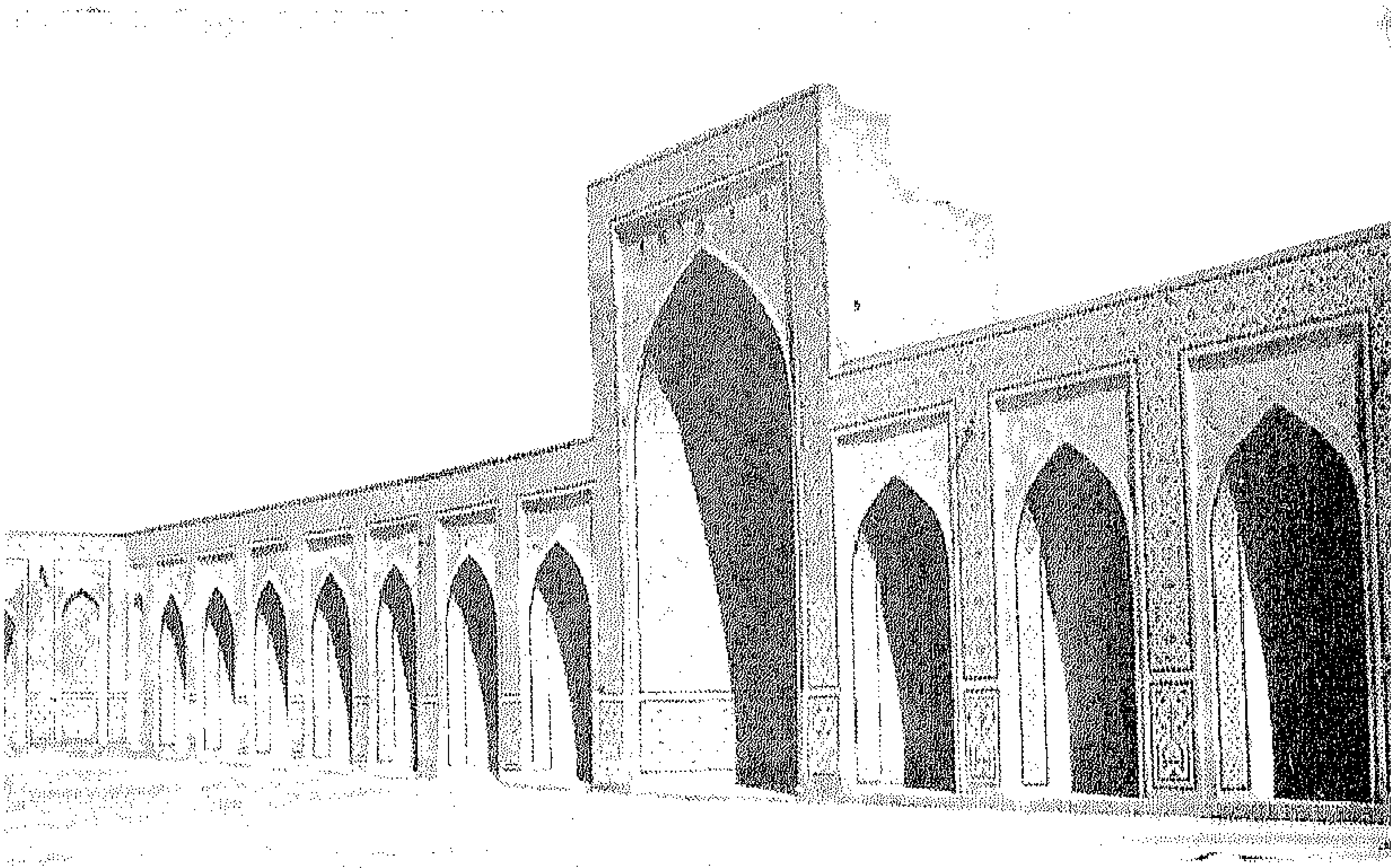

أحد أقدم المساجد فى البلاد
المسجد الجامع فى مدينة
ديربنت بجمهورية داغستان.

قصر شاهات شيرفان فى باكو.

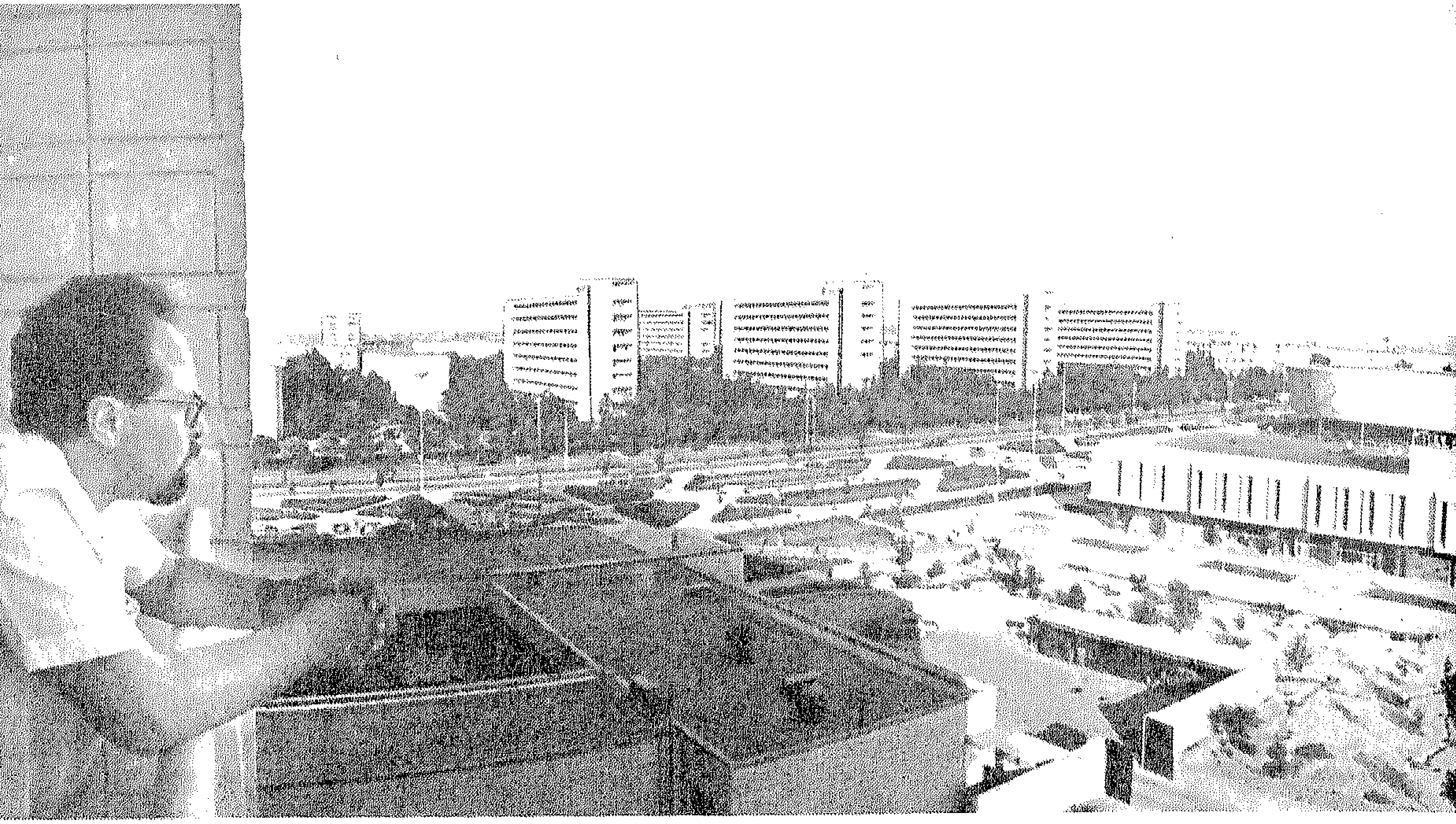

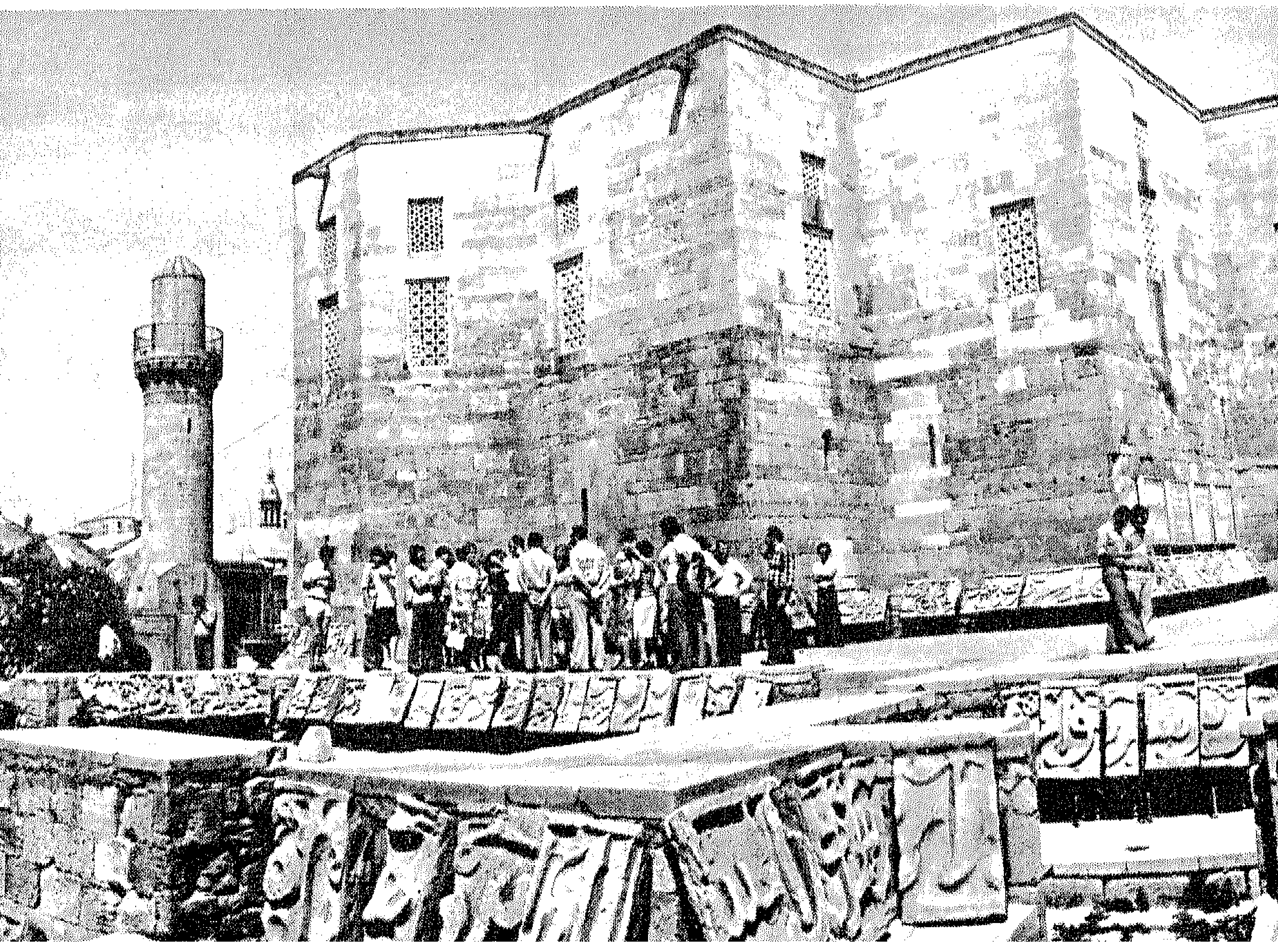

أكبر من الكاتدرائية القوطية فى ميلانو التى كانت معاصرة له، والبرج المركزى الذى يصل ارتفاعه الى ٣٦,٦٥ مترا تشير بوضوح الى ابعاده الضخمة وتقول قصيدة غنائية ترجع الى القرن الخامس عشر فى وصف القبة الفيروزية التى يبلغ قطرها حوالى ٢٠ مترا «وقبته كان من الممكن أن تكون فريدة ما لم تقلدها قبة السماء».

ويقوم أمهر صناع أوزبكستان فى الوقت الحاضر، بالتعاون مع الباحثين، بمهمة الترميم التى لا نجد لها مثيلا فى العالم فى اتساعها ودرجة تعقدها.

* * *

ولا تقل جمالا وروعة عن ذلك مقبرة المدينة شاهى زنده، التى اشتق اسمها من قبر قسام بن عباس ابن عم النبى محمد. ووفقا لما تقوله الاسطورة، فعندما سحقت قوات قسام على أيدى الكفار اثناء الصلاة، حمل قسام رأسه المفصول عن جسده ونزل بئرا عميقة قادته الى جنة تحت الارض، حيث يعيش فى الغالب حتى اليوم. ومن ثم الاسم الذى يعنى «الملك الحى».

والمقبرة متحف حقيقى من البلاط المزجج، وتضم طينا منحوتا، وخزفا مطعما. وقيشانى جميل الشكل وتصميمات ضخمة من الطوب المزجج. وفى الحقيقة فان قبر قسام الذى يرجع الى القرن الحادى عشر ليس له مثيل فى سمرقند من حيث فخامته وتنوعه.

وبالقرب من المقبرة توجد مجموعة من المقابر الفاخرة للعمارة الاسلامية فى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر. ويمكن للمرء أن يعدد بينها أضرحة خوجة أحمد، وتركاناكا، وتوجلوتيكين، وشيرين بيكا أكا وأمير زاده، وضريح ومسجد زوجة أخرى لتيمور هى توبان أكا.

وعندما قام الحكم السوفيتى فى آسيا الوسطى، كانت تحف العمارة الاسلامية هذه قد وصلت الى حالة من الدمار. وبمجرد أن توفرت الاموال والتسهيلات التكنيكية بدأت أعمال الترميم على نطاق لم يسبق له مثيل واستمرت حتى عام ١٩٦٢. وحوالى عام ١٩٧٧ تم ترميم ضريح التيموريين فى جور أمير، الذى يعلو بناؤه الاساسى، ذو الثمانية أضلاع من الخارج وأربعة أضلاع من الداخل، اكليلا دائريا يشبه الطبلة بقبة لازوردية ذات دعامات يبلغ قطرها ١٥ مترا عند قاعدتها ويصل ارتفاعها الى ١٢,٥ مترا. ويبعث على الاعجاب شكلها المحدد، والتصميم الزخرفى الضخم للطوب الازرق الفاتح والداكن بشكل متبادل.

والضريح من الداخل الذى يثير الرهبة حقا يضيئه ضوء النهار والضوء الذى ينساب من خلال النوافذ الرخامية ذات الجدائل الخشبية يساعد القبة ولوحات الجدران ذات اللون العقيقى الاخضر، التى رسمت عليها أشكال بالحفر البارز وكذلك الرخام المخرم. وتعتبر مقبرة تيمور الحجرية الخاصة المثيرة للاعجاب المصنوعة من النفريت الاخضر الداكن أكبر مقبرة فى العالم.

ورغم أن الحاكم الرهيب كان يرغب فى أن يحافظ هذا الضريح على استمرار عظمة الاباطـــرة المدفونين فيـــه، فان مقبرة جور أمير تدين بالقوة التى لا تخبو لجاذبيتها العاطفية ولبساطتها الفنية وزخرفتها المدهشة، لانها تدفع المرء الى التفكير فيما يمكن ان يحققه الانسان من الامور العظيمة السامية.

* * *

وتعتبر ريجستان منتدى سمرقند، حيث يجد المرء مدارس اولوج بيك، وشيردور، وتيلاكارى. وقد بنيت الاولى فى ١٤١٧ — ١٤٢٠، والثانية فى ١٦١٩ — ١٦٣٦، والثالثة فى ١٦٤٧ — ١٦٦٠.

وتبرز بين هذه المجموعة المعمارية، التى تبدو وكأنما خرجت مباشرة من حكايات «ألف ليلة وليلة»، مدرسة أولوج بيك التى لا تقل من الناحية الجمالية عن مبنى تيمور الفاخر. لقد خربها الزلزال وكذلك الحروب الاهلية فى أوائل القرن الثامن عشر ودمرت تماما القبة والمئاذن والوحدات السكنية فى الدور الثانى أو أصبح من الصعب الدخول اليها، وبالاضافة الى ذلك، فان تراكم المخلفات عبر القرون جعلها تبدو أصغر مما هى.

وكانت المدرسة فريدة فى زمانها فى أن منهاجها لم يضم فقط الدراسات الدينية، وانما شمل كذلك علوما دنيوية مثل الفلك والرياضيات وغيرهما من العلوم. وألقى أولوج بيك وغيره من العلماء البارزين المحاضرات فى المدرسة.

والنسق المعمارى يتفق تماما مع فكرة الذرى التى يمكن ان يصل اليها الفكر البشرى. فالترتيب التركيبى الواضح، والنسب المتناسقة والزخرفة الفاخرة، وتناسق الالوان يجعل من البناء قطعة معمارية كلاسيكية.

لاكثر من خمسين عاما كرس المعماريون ومؤرخو الفن، والفنانون والخبراء من موسكو ولينينجراد وطشقند وكذلك سمرقند، جهودهم لمهمة اعادة ريجستان لفخامتها الاصلية الكاملة. وكانت كثير من العمليات التى قاموا بها جديدة فى الممارسة العالمية. هكذا، كان على هؤلاء المرممين أن يعيدوا المئذنة الشمالية الشرقية التى يبلغ ارتفاعها ٣٣ مترا الى استقامتها بعد ان مالت بمقدار ١,٨ مترا عن موقعها الرأسى. وتم ذلك عام ١٩٣٢ فى فترة تبلغ ٢٠ دقيقة — ولكن بعد عشر سنوات من العمل التحضيرى — وفى عام ١٩٦٥ تم كذلك اعادة استقامة المئذنة الجنوبية الشرقية التى يبلغ ارتفاعها ٣٢,٧ مترا والتى مالت ١,٥٦ مترا عن موقعها الرأسى. وأخيرا فى عام ١٩٧٨ تم تخليص ريجستان تماما مما تراكم عليه عبر القرون.

وتقول الكتابة على الواجهة الرئيسية لمدرسة شيردور: «رغم مرور السنين فان عقاب جبل العقل لن يصل الى القمة العالية لبوابتها. وأن أمهر بهلوان للفكر يسير على حبل الخيال لن يصل فى كافة العصور الى قمة مئاذنها المحظورة. لانه عندما رفع المعماريون بدقتهم الصارمة قوس عقد البوابة، اعتقدت السماوات أنها قمر آخر فعضت أصبعها من الدهشة».

صلاة في جامع موسكو.

كيرخليار — احد الاضرحة الاسلامية في ديربنت بداغستان.

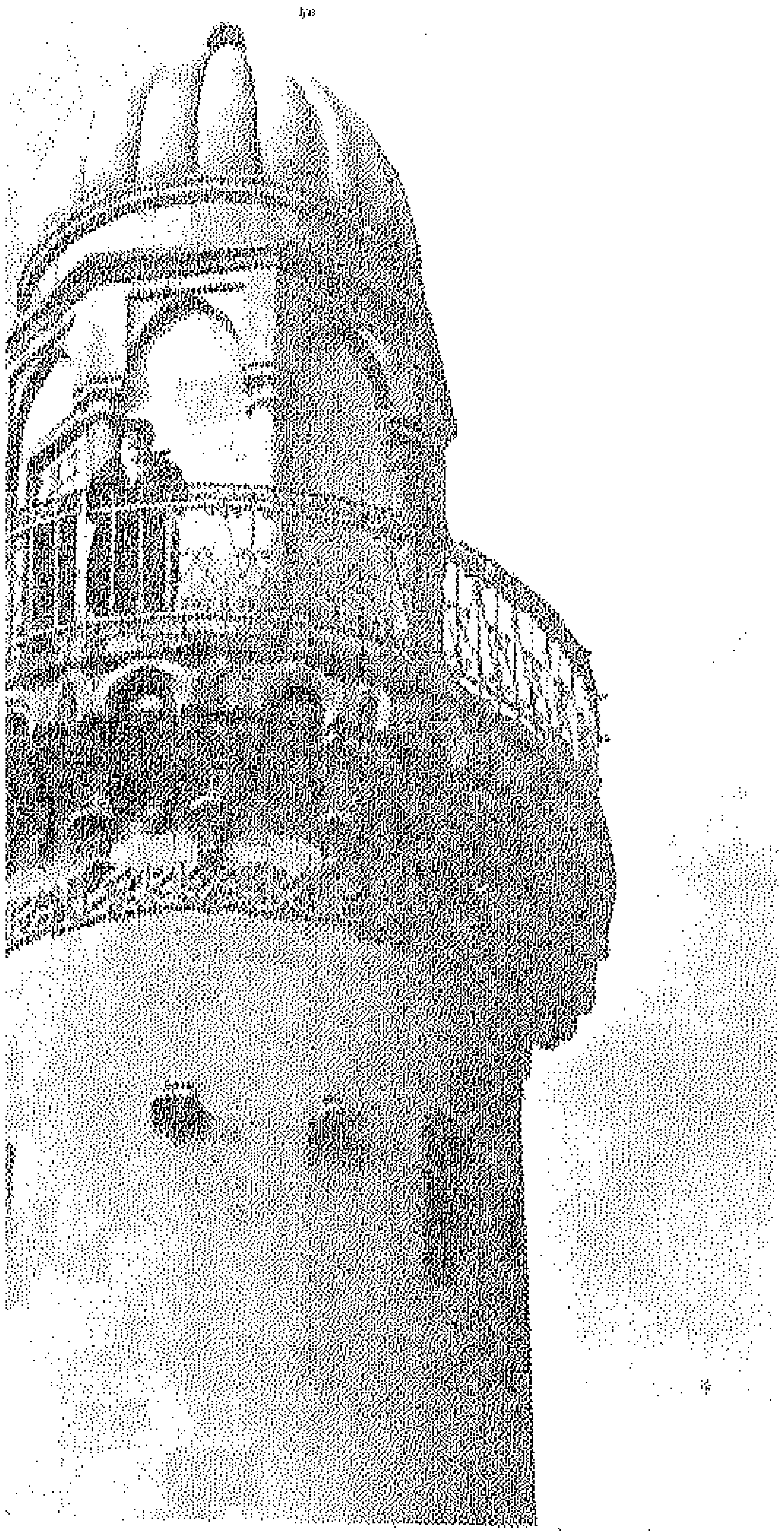

جامع موسكو.

مسجد «تازابير» في باكو.

واليوم، عندما يفتتن المرء بهذه المجموعة المعمارية التى تثير الاعجاب، والتـى أعيد ترميمها كى تجمل مجموعة الكنوز النفيسة للثقافة العالمية، لا يمكن للمرء الا أن يفكر فى امكان تصديق الاستعارات المبالغ فيها، لانه رغم المغالاة التقليدية للشعر الشرقى، فانه يحمل الينا حقا اقدام وعظمة مبدعه الحقيقى، الشعب الذى ستتلألأ هذه التحفة الرائعة على شرفه حتى نهاية الزمان.

* * *

ان بقايا مرصد أولوج بيك، الذى يحتل مكانا خاصا به بين كنوز سمرقند المعمارية قد اكتشفت مدفونة عند قاع شوبان أتا بالقرب من قناة الرى أوبى رحمت (المياه المباركة).

ففى ١٤٢٨ — ١٤٢٩، أمر أولوج بيك، الباحث الملكى ذو المكانة الفذة فى تاريخ الدولة الاقطاعية، ببناء مرصد لا يكون له مثيل فى الشرق أو الغرب. وكانت المهمة صعبة للغاية، لانـه كان لا بد من اقامة بناء مقاوم للزلازل حقا. وشغلت مقار الخدمات الطابق الارضى من هذا البناء المستدير ذى الثلاثة طوابق المقام على جرف تل تالى رساد. واستخدمت الاروقة العليا لمراقبة ورصد النجوم وكانت هناك منصات مفتوحة للادوات الفلكية. وتقول التقويمات التاريخيـة أنه كانت هناك على الجدران الضخمة فى الداخل «رسوم لا تضارع ونماذج للسماوات التسع، ومدارات للنجوم السبع المتحركة بدرجاتها ودقائقها وثوانيها وعشر ثوانيها، والنجوم الثابتة، وكذلك الارض بمناخاتها السبع وجبالها وبحارها وصحراواتها». وجمع أولوج بيك، مع مساعديه وتلامذته جداوله الفلكية ورغم ان أعمال الرصد أجريت دون تلسكوبات، حيث لم تكن معروفة فى ذلك الوقت، ما تزال تحتفظ بقيمة علمية فى أيامنا، فى عصر الادوات البصرية العالية الدقة وأحدث طرق البحث العلمى.

وجرى التحقق من بعض المعلومات الفلكية بدقة متناهية، مثل طول العام الشمسى، مثلا، الذى حدده أولوج بيك بـ ٣٦٥ يوما و ٦ ساعات و ١٠ دقائق و ٨ ثوانى أى بفارق يقل عن دقيقة واحدة عن الزمن الفعلى وهو ٣٦٥ يوما و ٦ ساعات و ٩ دقائق و ٩,٦ ثانية.

ومع ذلك، وبعد حوالى عشرين عاما دمرت هذه المعجزة العلمية ودفنت آلة السكستانـت (لقياس الاجرام السماوية) المثبتة فى الصخر تحت الرمال والاحجار.

ورغم أنه مع مرور الوقت نسى الناس أين يوجد المرصد على وجه الدقة، حكى كل جيل لمن يليه قصة عبقرية أولوج بيك وأتباعه فى البحث. وفى أوائل هذا القرن ذهب فريق من الاثريين الى سمرقند لاقتفاء بقايا المرصد. وتوقفت جهودهم نتيجة عدم مساعدة الحكومة لهم ماليا، فيما عدا فاسيلى فياتكين (١٨٦٩ — ١٩٣٢) الاثرى الروسى الذى عرف من دراسة لتسلسل الاحداث أن المرصد كان يقع بالقرب من شوبان أتا فى القسم الشمالى من المدينة.

وفى كل صباح كان يزور كالمتدين قاع هذا التل ليبحث عن أشارات تدل على البناء المفقود. وبدأ السكان المحليون يعتادون على رؤيته، وعندما قال لهم عما يفعل، أبدوا

احتراما كبيرا له وحتى دعوه لزيارتهم فى بيوتهم.

وفى أحد الايام فى ربيع ١٩٠٨ استيقظ فياتكين فى الفجر على طرق نافذته. «تعال معى» همس الراعى الذى أسطر الاثرى قبل ذلك بيوم واحد بالاسئلة عن الكسر الفخارية التى اكتشفها العالم. وقال فياتكين، وقد ضايقه أن يقلق فى مثل هذه الساعة المبكرة «ارفع صوتك، فأنا لا أستطيع أن أسمعك». وأجاب الراعى الصغير: «لقد كنت تجلس هناك طوال الامس، أليس كذلك؟ كنت تستريح. أليس كذلك؟ وكنت أنا أرعى غنمى. ورحلت. أليس كذلك؟ لكننى تجولت فى المنطقة وفجأة وقعت فى حفرة. هناك صخرة ضخمة هناك. انها كبيرة فى حجم الخندق. وربما كان أولوج بيك الذى تبحث عنه تحت الارض هناك. ما رأيك؟»

بدون مزيد من الضجيج خرج فياتكين مع الصبى الى التل الذى تنمو فوقه الاعشاب. وبعد أن عد الصبى عشر خطوات بعيدا عن الموقع الذى كان الاثرى يستريح بالامس، أشار الى حفرة غير عميقة ينمو عليها نبات الارقطيون. وبدأ فياتكين ينظف الحشائش وبعد أن نظف حوالى مترين أصبح متأكدا من أنه وجد جزءا من قوس آلة سكستانت أولوج بيك.

وساد الهرج المدينة بأكملها. وتوجه العالم الى العمدة طلبا للمساعدة ولكنه لم يجدها. وبالاموال التى جمعها له أصدقاؤه، استأجر فياتكين عددا من العمال وبدأ الحفر. ولكن عندما أصبح واضحا أنه بدون تمويل كاف سيكون من المستحيل اكمال أعمال التنقيب توقف عن مواصلة العمل ونصب خيمة لتحمى ما عثر عليه من الاضرار العرضية.

وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ أخبر عمدة سمرقند السوفيتى فاسيلى فياتكين أن السلطات الجديدة تدرك اكتشافه وتريد أن تعرف نوع المساعدة التى قد يحتاجها، حيث أنها تعتبر ذلك سهمة على أعلى درجة من القيمة العلمية.

...واليوم يأتى الاف الناس من جميع أنحاء العالم كل عام لكى يروا بقايا المرصد والمتنزه أعلى التل يتوسطه متحفه والنصب الذى أقيم للفلكى العظيم. وقد دفن فاسيلى فياتكين بالقرب من النصب.

* * *

تعتبر بخارى واحدة من قلائل المدن فى العالم التى احتفظ فيها تقريبا بكافة الانماط المختلفة للمبانى التى أقيمت منذ القرن التاسع.

فى القرن العاشر كانت بخارى موطنا للعديد من الباحثين والكتاب، والفنانين الذين حظوا بشهرة عالمية، ومن بينهم المؤرخ نارشخى (٨٩٩ — ٩٥٩) والشاعر روداكى (٨٦٠ — ٩٤١) والطبيب وعالم الرياضيات والموسوعى الشهير أبو على حسن بن احمد بن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) والمعروف بابن سينا، والذى ترك لنا وصفا لمكتبة بخارى الخيالية، وعلى وجه الخصوص فهرسها ومخزنها.

وقد أكمل بناء ضريح اسماعيل سامانى، الذى ينتمى لاسرة حاكمة اقطاعية، حكمت آسيا الوسطى من ٨١٩ حتى ٩٩٩، فى ٩٩٩

بعد اكثر من ١٠٠ عام حيث بدأ البناء عام ٨٧٤. وهذا الصرح الذى بنى من الاجر المربع الذى ترجع اليه أيضا جاذبيته الجمالية، والمشهور على نطاق العالم أقيم على شكل مكعب تعلوه قبة نصف كروية. والقباب الاربعة الاصغر فى كل ركن تعطى جوا من الرقة. وأعمال الاجر الزخرفية ذات سحر كبير، فتصميمها الزخرفى الفريد يضفى الرقة على الجدران السميكة التى تصل الى ١,٨ مترا. ويبدو كما لو كانت الزخرفة — التى لا يضارعها شىء فى العمارة العالمية — تغير نمطها طوال اليوم، ويتوقف ذلك على الزاوية التى تصنعها أشعة الشمس مع الجدران.

وحتى ١٩٢٠ كان الضريح ينتصب بين مقابر قديمة مما قلل من ارتفاعه الحقيقى حوالى الثلث، وكانت قبته محطمة. وقد أعيد ترميم الضريح بشكل كامل حوالى ١٩٣٤ وأقيم متنزه حوله.

* * *

وأعلى صرح فى المدينة هو مئذنة كاليان التى يبلغ ارتفاعها ٤٦,٥ مترا. وتعرف كذلك باسم برج الموت، وقد بنيت منذ ثمانى قرون مضت. وفى داخل المئذنة يؤدى سلم حجرى حلزونى من ١٠٤ درجة الى الطرف المستدق قليلا، الذى يشكل فى اعلاه مبنى مستديرا به ١٦ فتحة مقوسة.

واحدى الاساطير العديدة التى تحيط بهذه المئذنة تقول أن مـن بناها، بعد أن وضع الاساس بمساعدة محلول من طين من نوع خاص ولبن الجمال، اختفى لكى يعود بعد عامين بعد أن تصلب المحلول تماما.

وهناك سبب وجيه لذلك وللحكايات الاخرى التى انتشرت عن هذا المبنى. لانه لم تدمره الزلازل أو أية كوارث أخرى خلال القرون الثمانية منذ ذلك الوقت، واحتاج فقط الى ترميم جزئى بعد العام ١٩٢٠.

أما بالنسبة للتسمية الاخرى التى تطلق عليه وهى برج الموت، فانها ترجع الى تلك الازمنة التى كان فيها حكام بخارى القساة يعاقبون فيها المجرمين بالقائهم من قمة المئذنة الى الميدان الحجرى الذى يقع أسفلها.

وتعتبر مئذنة كاليان أجمل ما فى مجموعة بخارى المعمارية المركزية والمعروفة باسم بوى كاليان أو قدم العظيم، وهى تضم مسجد كاليان وقد بنى فى عام ١٥١٤ ويعتبر واحدا من أقدم المساجد والثانى بعد مسجد بيبى خانوم فى الاتساع، ومن الناحية المعمارية يتكون من مسجد غير مسقوف ذى أربعة زوايا من الداخل. والجدار الغربى من المبنى الرئيسى يوجد به محراب، وبوابة مرتفعة عليها فسيفساء من الرخام المنحوت، وقبتين متداخلتين الواحدة فى الاخرى فوق قاعدة مزخرفة طويلة تشبه الطلبة، وتبدو وهى تطل على المدينة وكأنها تندمج مع القبة الزرقاء للسماء. والصحن الداخل مسقوف بـ ٢٨٨ قبة. والمسجد يمكن أن يتسع لحوالى ١٠٠٠٠ شخص من المؤمنين.

وقد اكتسبت مجموعة بوى كاليان المعمارية شكلها الحالى عندما أكملت مدرسة مير عرب عام ١٦٣٥.

* * *

ان لابى خاوز، أحد أقدم أسواق بخارى، لا يزال موجودا. وقد سمى على اسم بركة يبلغ طولها ٤٢ مترا وعرضها ٣٦ مترا وعمقها ٥ أمتار، حفرت عام ١٦٢٠ وأعيدت الى حالتها الاصلية الان وملئت من جديد بالماء.

ويحاط مكان السوق هذا بمبان تثير الاعجاب، بما فيها نادر ديوان بيجى خانقا، مضيفة الحجاج وقد بنيت عام ١٦٢٠ على الجانب الغربى ومدرسة نادر ديوان بيجى على الجانب الشرقى (عام ١٦٢٢)، ومدرسة كوكلداش على الجانب الشمالى. ومن هذه النقطة بدأ طريق بخارى التجارى، الذى يربط كل أسواق تاجى زارجارون ذات القباب، أو قبة الصياغ، وسوق تاجى تلباك، أو قبة باعة الطواقى، وتاجى سارافون، أو قبة تجار العملات، وثيم عبدالله خان، وقد بنيت كلها فى القرن الخامس عشر على امتداد الطريق من لابى خاوز الى ريجستان.

ان بواكى (تاكات) بخارى وأروقتها (ثيمات) (و التاك يعنى القوس أو الباكية وتشير الى سوق عند مفترق طرق تعلوه قبة كبيرة، بينما الثيم يشير الى رواق تجارى) هى كل ما تبقى من أسواق المدينة القديمة التى كانت تثير الاعجاب لدرجة أنه لا توجد مدينة أخرى فى وسط آسيا يمكن أن تفاخر بشىء مماثل.

ولكن لنرجع الى لابى خاوز. ما تزال تتردد الاسطورة التى تقول أن نادر ديوان بيجى، الوزير الجبار للامام كولى خان، فكر فى بناء بركة كبيرة فى ملكية أرملة بالقرب من مضيفته. وقد رفضت نهائيا بيع الارض وأمر الوزير بحفر قناة تحت منزلها. وقوض تدفق المياه جدران المنزل وأجبرت المرأة المسكينة على الرضوخ — ولهذا السبب سميت البركة فى الاصل كاوزى بازور أو بركة القوة. وقد أعيد المكان الى حالته الاصلية وزين باحواض الزهور والمروج.

* * *

ويقدم قصر شاهات شيرفان فى باكو مثالا باقيا فخما للعمارة الاذربيجانية القديمة.

أنه فى الواقع مجموعة من القصور العديدة على قطعة أرض صغيرة تبلغ هكتارا واحدا فقط تحيط بثلاث أفنية صغيرة مقامة على مستويات مختلفة. والقصر الرئيسى بديوان خانة، أو قاعة الاستماع، يوجد فى الفناء الاعلى. ويؤدى درج مسقوف الى الفناء المركزى، حيث توجد بقايا مسجد قديم ومقبرة فلكى البلاط، والى ممر كالغرفة يربط الفناء العلوى بالفناء السفلى، حيث يقع المسجد الملكى ومقبرة شاهات شيرفان. وخارجها توجد غرف الحمامات وبركة تحت الأرض — أوفدان — كانت كذلك فى وقت من الاوقات جزءا من منشآت القصر.

وفى عام ١٩٢٠ قررت اللجنة الثورية لجمهورية أذربيجان السوفيتية الجديدة بدء أعمال الترميم، من أجل اصلاح الاضرار التى أحدثها الزمن والدمار الذى سببته الحروب الاقطاعية والغزوات الاجنبية. وأعيدت المبانى بالتدريج الى حالتها الاصلية، وتحولت كل المجموعة المعمارية الى موقع تحميه الدولة، واليوم الى متحف للتاريخ والعمارة.

والسمة البارزة هي الدرجة العالية لتنظيم المكان، والتي تبين مقارنة واضحة لابنية محددة هندسيا ذات تناسق مدهش وأبنية بسيطة للغاية، وكذلك لتكنيكات بناء محددة بدرجة مدهشة ترتكز على معرفة دقيقة بالمواد المتوفرة — الصخر والحجر الجيري.

ولا تقل الزخرفة المعمارية روعة عن ذلك، وهي تكشف عن خيال جامح وتتميز بنماذج زخرفية صيغت بمهارة. لقد تفوق أساتذة النحت الذين زخرفوا القصر في تصميماتهم الهندسية الجميلة، واستخدامهم الواقعي أو المتنوع الاسلوب لوحدات الزهور.

وتتميز بين غرف القصر الصغيرة، التي يوجد منها ٢٥ غرفة في كل طابق قاعة الاحتفالات الثمانية الاضلاع، التي وجد أنها بنيت في أوائل القرن الخامس عشر وشكلت نواة القصر القائم، الذي أكمل بناؤه قبل نهاية القرن.

وفي الفناء الاسفل يوجد مسجد ذو مئذنة معمارية بسيطة تحمل قاعة الصلاة ذات اللونين المرتبطة بها قبة ذات عقد ملون. وقسم صغير من أرضية المسجد بالداخل مركب فيها بلاط أزرق سماوي ويحيط به سور صغير من الاحجار المنحوتة. وفي القسم الغربي من المسجد توجد غرفة للصلاة ذات لون واحد خصصت لاداء العبادات لنساء الخان.

والمقبرة التي تضم رفات فلكي البلاط أقيمت في القرن الخامس عشر بعد هذا المسجد الذي بني في القرن الثالث عشر.

* * *

ومن اجل اعادة الكنوز الفاخرة للفن والعمارة القديمة الى شكلها وحالتها الاصلية، ظل آلاف الناس، من الاثريين والمؤرخين والفنانين والمرممين والحرفيين الشعبيين يعملون كفريق طوال سنوات، لقد كشفوا أسرار البناة في الماضي للمواد والاصباغ والطلاء التي ابتكرتها عبقرية الشعب طوال العصور.

وعاما بعد عام تفتح للجمهور مبان قديمة لا تقدر بثمن بعد ترميمها في سمرقند وبخارى. وقد أعلنت حكومة اوزبكستان السوفيتية في خيوة الحي القديم في المدينة، ايشان كالا، بقصوره الفاخرة، ومدارسه ومساجده ومقابره، سوقعا تحميه الدولة. وتضم قائمة لالىء العمارة القديمة التي أعيد ترميمها أخيرا مقبرة السلطان سانجار في تركمانيا والتي ترجع الى القرن الثاني عشر، ومسجد نارداران في أذربيجان الذي يرجع الى القرن الرابع عشر، وفي عام ١٩٦٩ أعيد بناء مسجد في مدينة اورجونيكيدزه في شمال القوقاز بعد أن كان خرائب تقريبا. وبين الروائع العديدة الاخرى التي ستنتصب قريبا بكل فخامتها مقبرة خوجه أحمد ياسفي في كازاخستان ومدرسة كوش (القرن السادس عشر) في آسيا الوسطى.

لآلئ الحكمة

على بوابة المدرسة التى بناها أولوج بيك فى بخارى كتب خيرة خطاطيه الكلمات التالية: «انه لواجب على كل مسلم، رجلا أو امرأة، أن يسعى الى المعرفة». وكان يمكن رؤية كتابة مماثلة كذلك، اذا ما صدقنا معاصرى الفلكى العظيم، على بوابة مكتبته الشهيرة فى سمرقند، التى دمرت بعد وفاته، والتى كانت تضم عشرات آلاف الكتب فى الفلسفة، والرياضيات، والفلك، والتاريخ، والطب، والجغرافيا. وكان بمقدور هذا الحاكم المستنير أن يقرأ الشاعر الفارسى العظيم حافظ (١٣٢٥ — ١٣٨٩/٩٠) والحكيم والشاعر نظامــــى (١١٤١ — ١٢٠٣) وفيلسوفى الاغريق القدامى اللامعين أفلاطـــون وأرسطو، بلغتهم الاصلية.

وعندما أجبر رجال الدين الاسلامى أولوج بيك بعد ٤٠ عاما من حكمه على التنازل فى عام ١٤٤٩ لولده، واقترحوا عليه أن يهاجر، قام على كوشيشى، أحد أقرب تلاميذه، باخفاء المكتبة التى لا تقدر بثمن فى مكان ما فى ضواحى سمرقند. وقد اغتيل أولوج بيك بغدر وهو فى طريقه الى بخارى وهرب اصدقاؤه لكى ينجو من نفس المصير. وتوفى على كوشيشى بعيدا عن موطنه. واستمر الباحثون لمدة ٢٠٠ سنة يبحثون عن هذه المجموعة البارزة من لآلىء الحكمة الانسانية، معتبرين عبقرية أولوج بيك مزيجا من ذخيرة المعرفة المتراكمة بواسطة أسلافه العظام الفيلسوف أبو نصر محمد الفارابى (٨٧٠ — ٩٥٠) وابن سينا وأبو الريحان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨)، الذين يدرس تراث معرفتهم بشكل شامل ومنتظم فى الاتحاد السوفيتى.

ولد الفارابى فى فاراب على ضفاف سيرداريا بالقرب من مدينة أريس الكازاخية الحالية. وكان موسوعيا لامعا، قدم أسهاما بارزا فى الرياضيات، والفلك والفلسفة، والطب، والاخلاق، وعلم النفس، والمنطق، وحتى الموسيقى، وقد بجله معاصروه فاطلقوا عليه اسم «المعلم الثانى» بعد أرسطو.

وعندما احتفل فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٥ على نطاق واسع بالذكرى ١١٠٠ لمولده،

نشرت أهم أبحاثه الباقية حول الفلسفة، والاخلاق الاجتماعية والرياضيات والكيمياء، وأسس العلوم الطبيعية فى طبعات ضخمة باللغات الاوزبكية والكازاخية والروسية. وفى نفس هذا العام نظمت أكاديميات العلوم فى الاتحاد السوفيتى وفى جمهوريات كازاخستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان وتركمانيا، وقيرغيزيا معا مؤتمرين دوليين، أحدهما حول «الفارابى والحضارة العالمية» فى موسكو، والاخر حول «الفارابى والتقدم العلمى والثقافى فى الشرق» فى ألما اتا. وقبل ذلك بعامين، فى عام ١٩٧٣، كرس المؤتمر الخامس لكتاب آسيا وافريقيا، الذى عقد فى العاصمة الكازاخية ألما اتا يوما خاصا للباحث سماه «يوم الفارابى».

أما أبو الريحان البيرونى، الموسوعى العظيم من آسيا الوسطى، والذى عاش وعمل لفترة طويلة فى موطنه مدينة خوارزم، فقد أنتج حوالى ١٥٠ بحثا قيما للغاية حول الرياضيات، والجيولوجيا والفلسفة، والتاريخ، والفلك، والجغرافيا، وهى الموضوعات التى برهن الباحث أنه يسبق فيها عصره بكثير. وقد عثر على حوالى ٤٠ من هذه المؤلفات الهامة بفضل البحث الذى استمر لعدة أجيال وبخاصة فى الازمنة السوفيتية. وهكذا، فان كتابه «الاثار الباقية من القرون الخالية» يعتبر خلاصة وافية عن تاريخ، وثقافة، وفلسفة، وفلك، ودين العديد من الشعوب، بينما لا نجد لكتابه «تاريخ الهند» شبيلا فى أدب العصور الوسطى باعتباره أروع ما كتب فى البحث التاريخى والسلالى. وبالاضافة الى هذه المؤلفات، التى نشرت مرارا فى الازمنة السوفيتية بكلا اللغتين الروسية والازبكية، هناك أبحاثه عن شكل الارض وسطحها وعلم المعادن والتقويم الفلكى. وقد احتفل فى الاتحاد السوفيتى بالذكرى الالف لمولده بشكل مهيب عام ١٩٧٣.

وكان يقيم فى خوارزم فى نفس الوقت تقريبا مع البيرونى الرياضى والفلكى الاوزبكى الشهير محمد بن موسى الخوارزمى، الذى اصبح فيما بعد عميدا للباحثين فى بلاط الخليفة المأمون فى بغداد. وفيما بعد، فى القرن الثانى عشر انتج مؤلف المعاجم أبو القاسم محمد ابن عمر الزمخشرى سلسلة من الكتب حول علوم اللغة: وما تزال معاجمه العربية — التركية والتركية — الطاجيكية حتى يومنا هذا تمثل أبحاثها لها قيمتها.

ويبذل جهد ضخم فى الاتحاد السوفيتى من أجل دراسة تراث الفيلسوف اللامع والموسوعى ابن سينا، الذى احتفل بالذكرى الالف لمولده على نطاق واسع فى الاتحاد السوفيتى. وقد أعيد نشر العديد من اعماله أو تعد للنشر باللغات الاوزبكية والطاجيكية والروسية. وهكذا يجرى اعداد النص الكامل المدقق لكتابه «القانون فى الطب» للنشر، وكذلك مراسلاته مع البيرونى وكتاب «الشفاء» الذى يشرح فيه عقيدته الفلسفية. وقد نشرت عشرات الكتب التى تتناول العديد من جوانب حياته وعمله.

حافظت شعوب الاتحاد السوفيتى على ذكرى الباحثين العظام السابقين باطلاق اسمائهم على

المدن والشوارع والميادين والكليات والمصانع. وهكذا اطلق على مدينة جديدة حديثة وجميلة بالقرب من بخارى اسم الشاعر الاوزبكى للقرن الخامس عشر، الحكيم ورجل الدولة على شير نوائى (١٤٤١ — ١٥٠١)، بينما سميت مدينة وحي فى جمهورية كاراكالباك فى شمال غربى أوزبكستان البيرونى. وأطلق على عشرات المدارس، والمكتبات والكليات، والجامعات، والمزارع فى أوزبكستان، وكازاخستان وطاجيكستان، واذربيجان، وقيرغيزيا وتركمانيا أسماء ابن سينا، والبيرونى، والفارابى، والشاعر الفارسى للقرن الخامس عشر جامى، وأولوج بيك، ونظامى، والشاعر الاذربيجانى العظيم للقرن السادس عشر فضولى، والخوارزمى، وكثير غيرهم من الفلاسفة البارزين للعصر.

وينبغى أن نشير الى أن كتابات الباحثين والشعراء البارزين وعلماء الدين الاسلامى تدرس فى الجامعات وكليات الدراسات الشرقية. ولقد أكد لينين مرارا أنه ما لم يتم استيعاب ثروة الخبرة التى راكمتها البشرية فى جميع ميادين المعرفة والثقافة بدقة فسيكون من المستحيل بناء المجتمع الاشتراكى الجديد وحياة السعادة الجديدة بأى نجاح، وبالتالى، يجب أن يتعرف كل عامل وفلاح ومثقف متنور، وكل الجيل الشاب للشعب السوفيتى على أفضل منجزات الاجيال السابقة.

* * *

وتحافظ الدولة السوفيتية باهتمام على كنوز العبقرية البشرية. والمخازن الواسعة التى أقيمت فى موسكو، ولينينجراد، وطشقند، وألما أتا، وباكو، واشخباد وفى أماكن أخرى توفر كافة التسهيلات للمحافظة الدقيقة على المخطوطات والكتب، التى تخزن فى مبانى خاصة ذات درجات حرارة وضوء وتهوية يجرى التحكم فيها. وتفحص كافة المجلدات دوريا، وتعالج على الفور، حسبما تقتضى الضرورة. ومن المحظور اعارة أى مخطوط أو نسخة أصلية، ويستخدم الباحثون، وطلبة الجامعة أو القراء العاديين نسخا مصورة.

ويوجد لدى العديد من الجامعات كذلك مخازن خاصة للاصول والمخطوطات. وهكذا، فان المجموعة الكاملة تقريبا من المخطوطات الاسلامية فى القرون الوسطى الموجودة الان فى لينينجراد تعطى أمثلة رائعة من الشعر، والنثر، والابحاث حول الفلسفة والتاريخ، والجغرافيا، والقانون، وفن الحرب، وحول القرآن الكريم وعلوم الدين والصوفية.

وهكذا، يمكن للمرء أن يذكر فى مجموعة الشعر أجزاء عديدة من كتاب «الاغانى» للباحث الشاعر العربى على الاصفهانى (٨٩٧ — ٩٦٧)، وكتاب أخر جمع فى القرن الخامس الهجرى، وكتاب الباخرزى «دمية القصر وعصرة أهل العصر» (القرن الخامس عشر). وتحتل مكانا مرموقا فى المجموعة الدينية موسوعة الغزالى (١٠٥٨ — ١١١١) الشهيرة «احياء علوم الدين».

ونجد القرآن الكريم فى عشر لفافات كاملة من الرق، يرجع تاريخ أقدمها الى عام ١٠١٠.

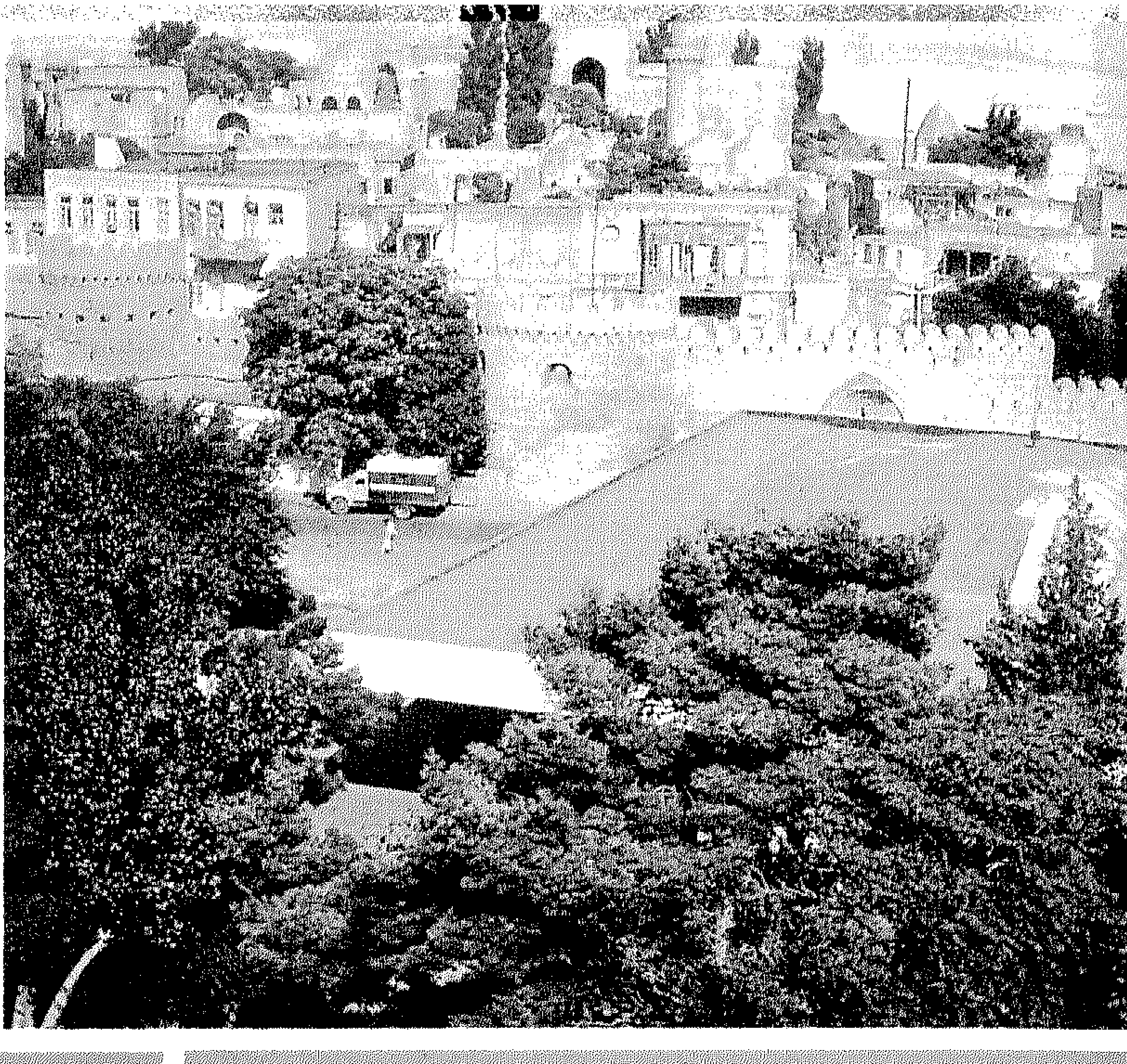

قصر شاهات شيرفان في باكو.

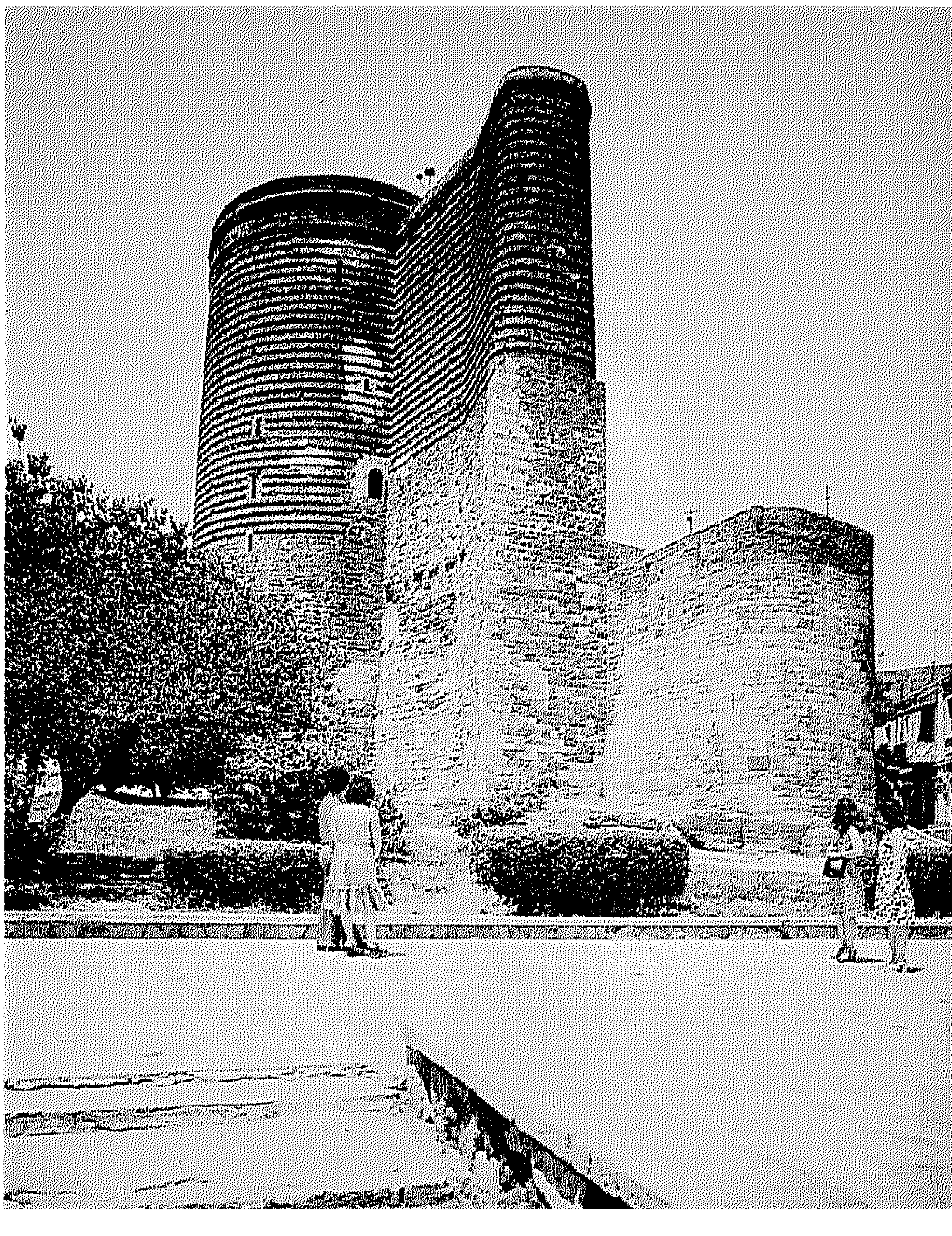

برج العذراء في باكو.

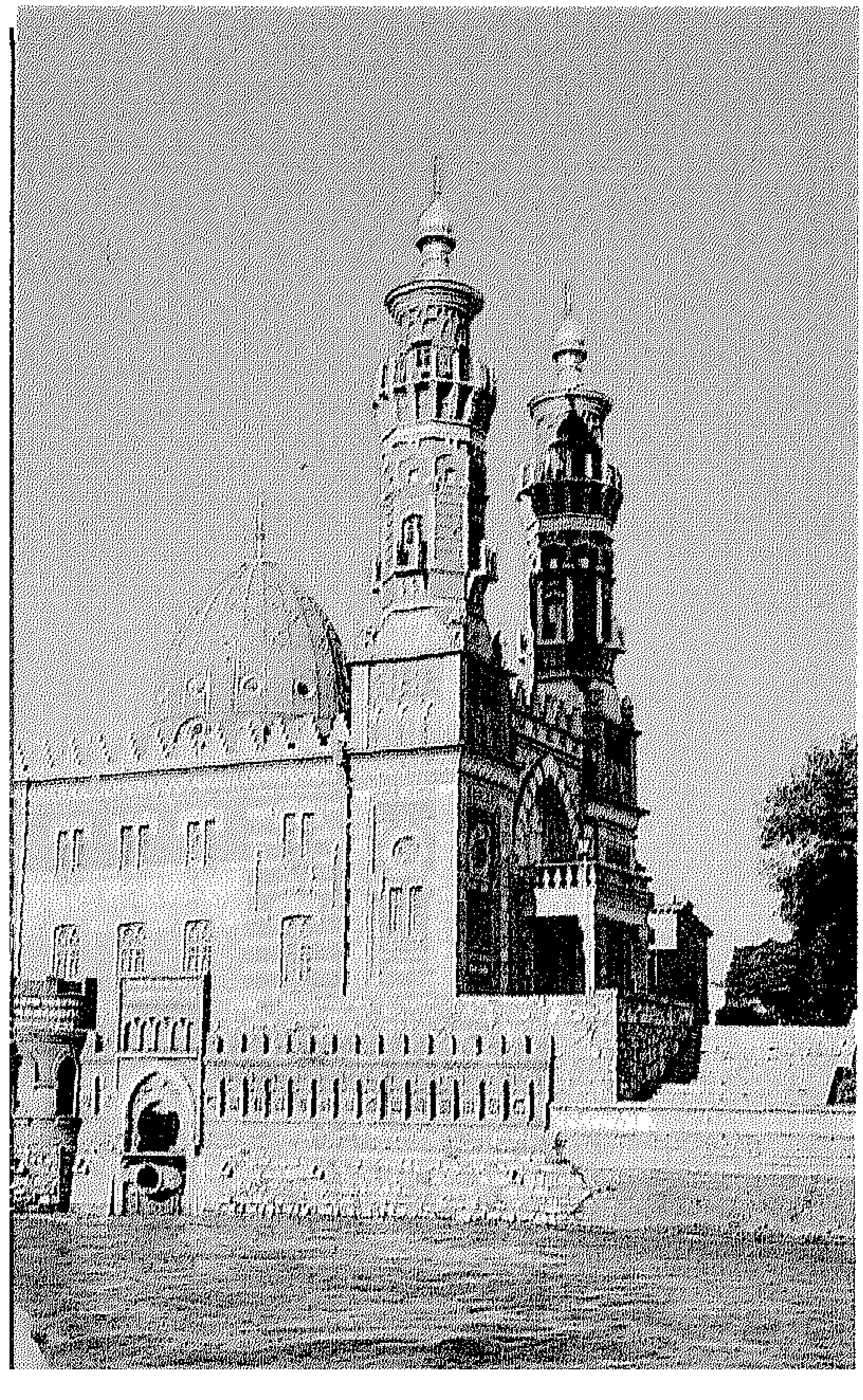

جامع في مدينة اورجونيكيدزه (آسيتيا الشمالية) بعد ان اعيد الى حالته الاصلية.

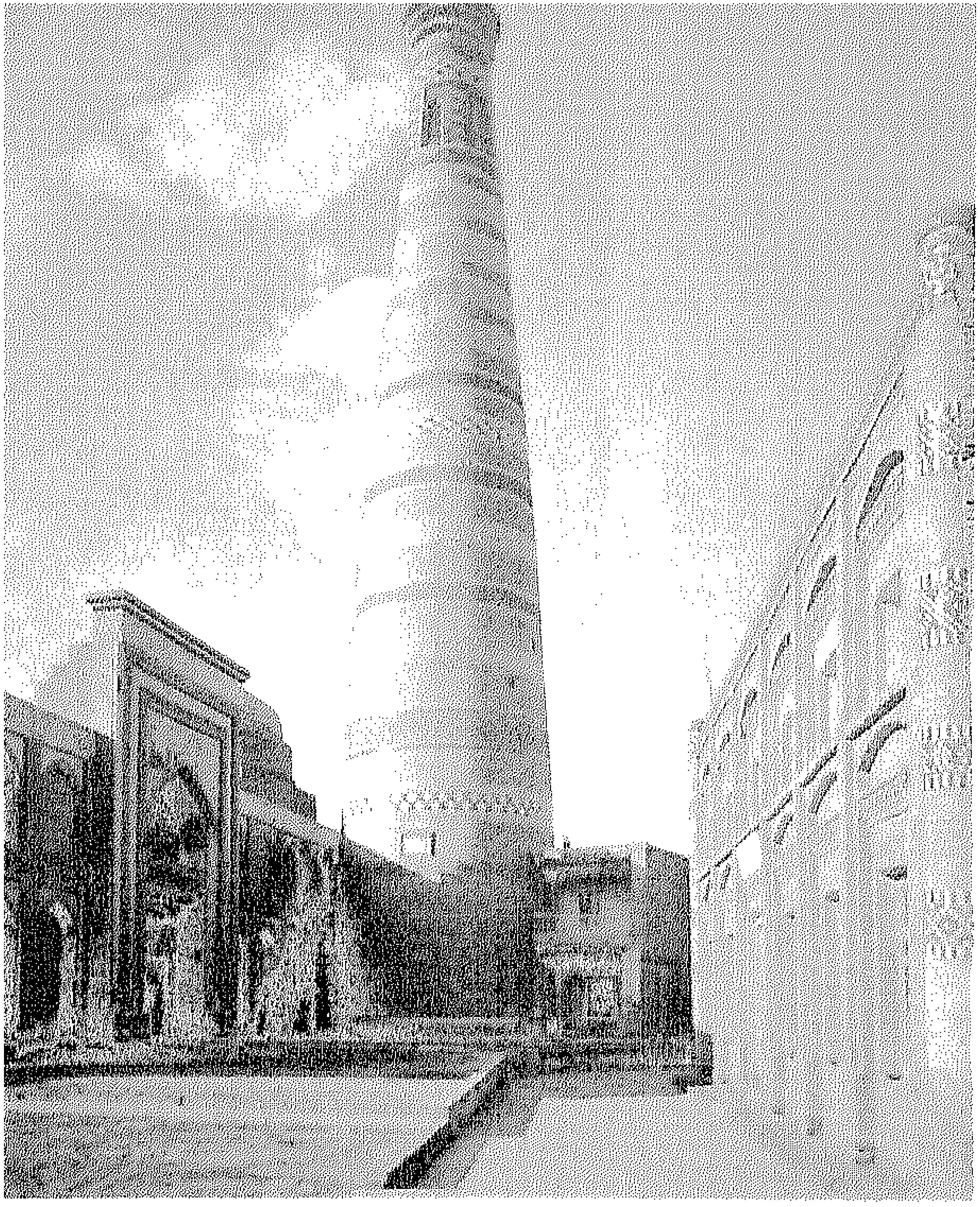

مئذنة كاليان فى بخارى.

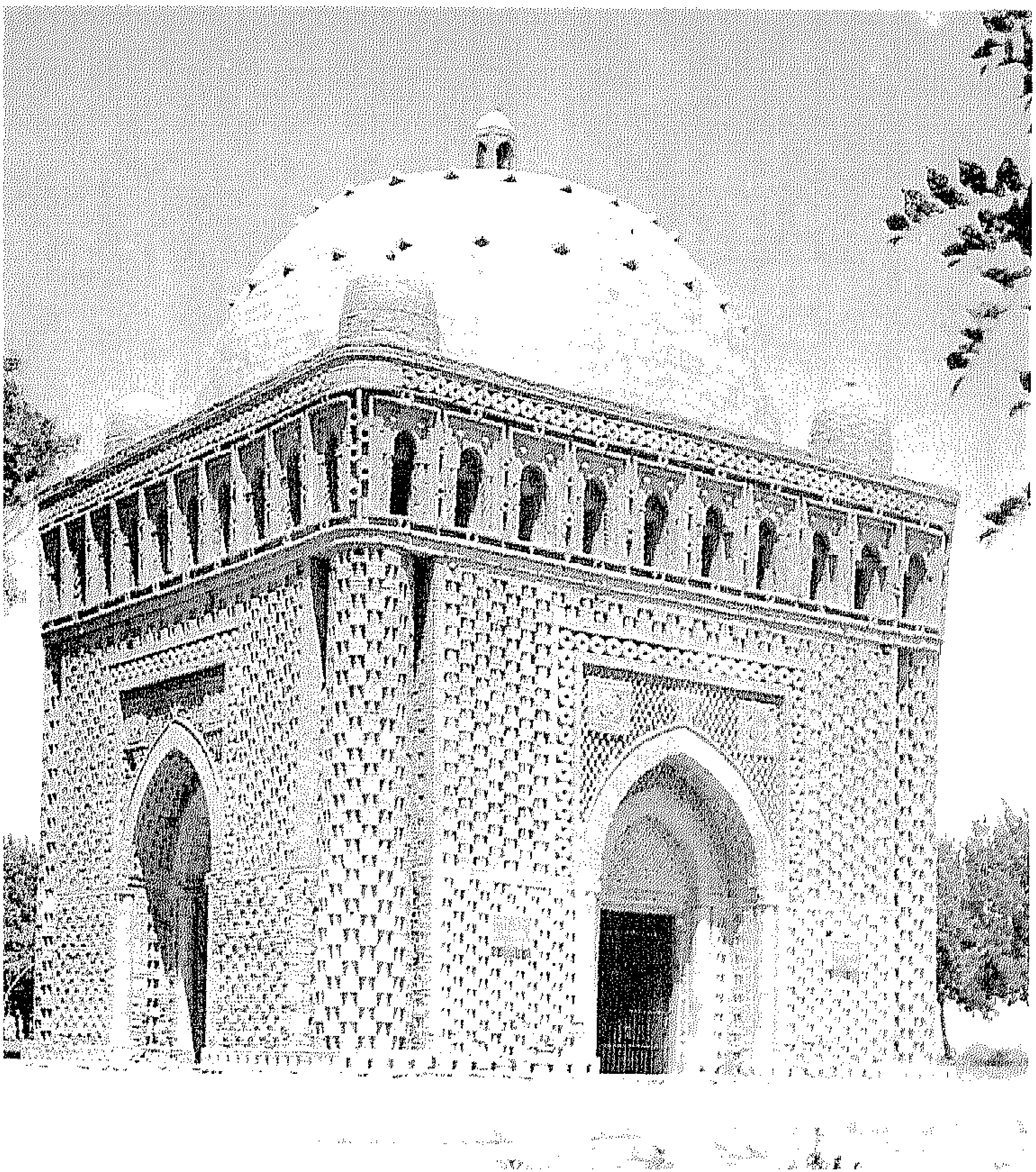

ضريح اسرة سامانيد فى بخارى.

واجهة وقبة جامع تيلاكارى
فى سمرقند.

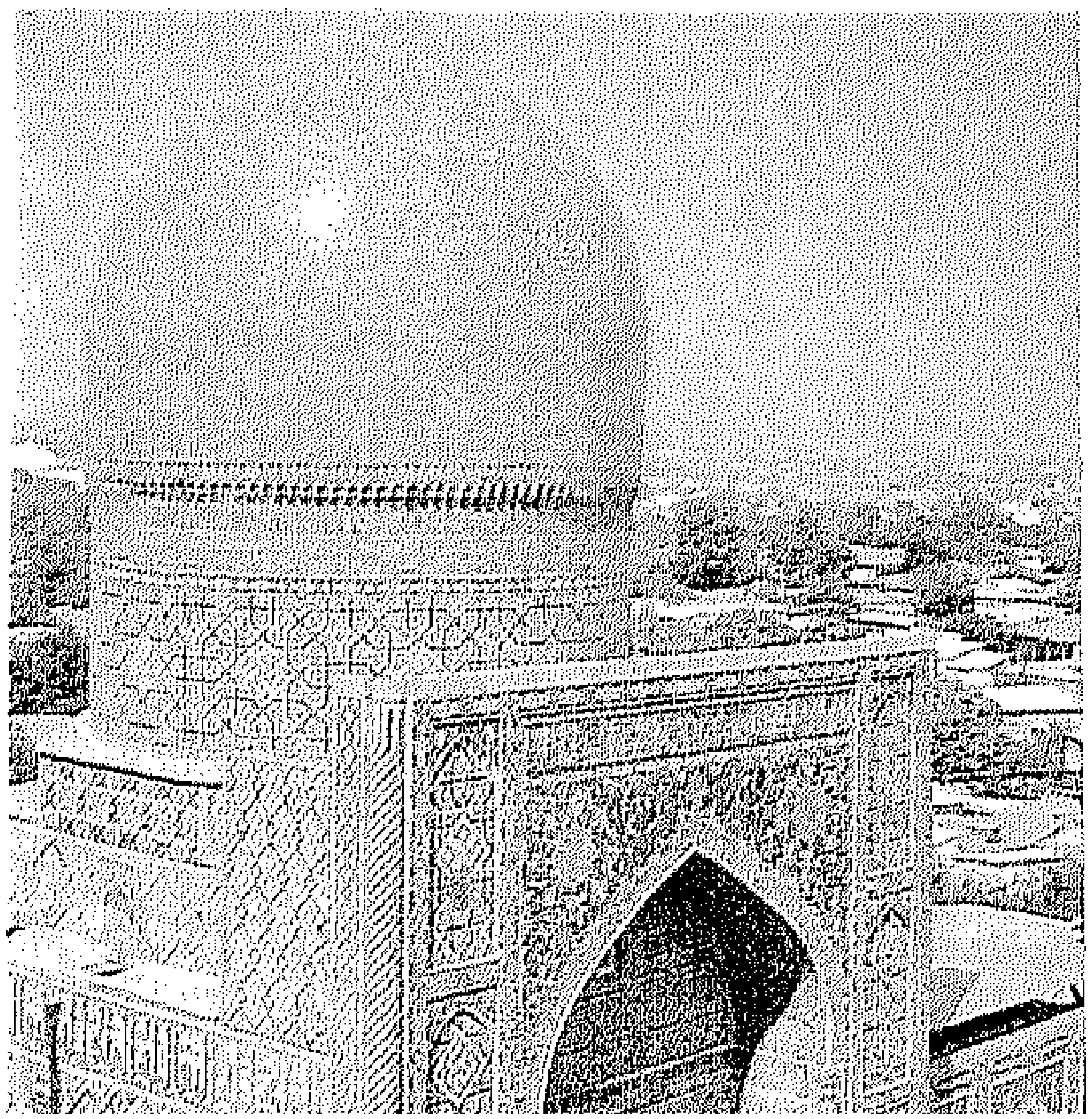

جامع في مدينة كيروفوباد بأذربيجان.

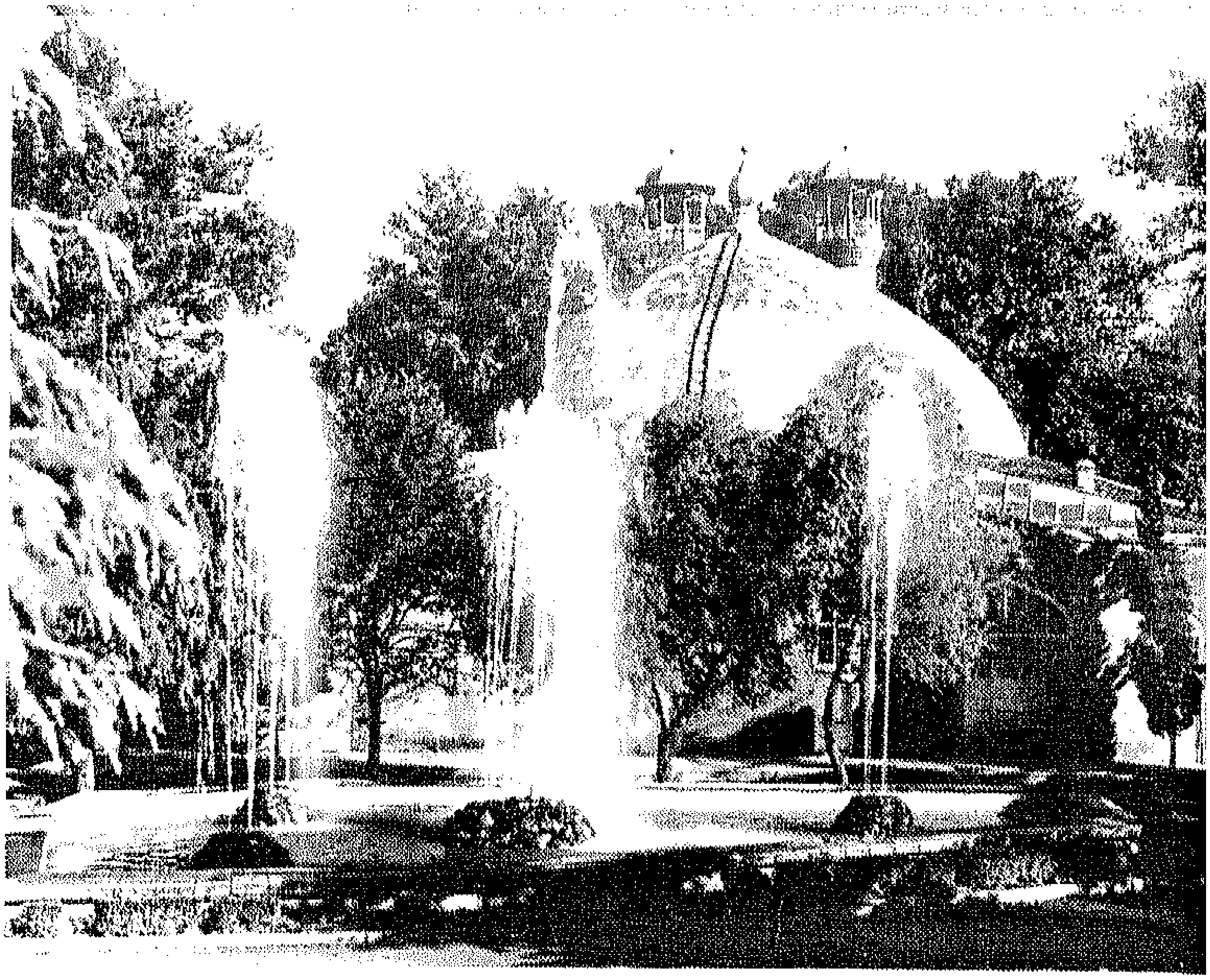

جامع لينينجراد.

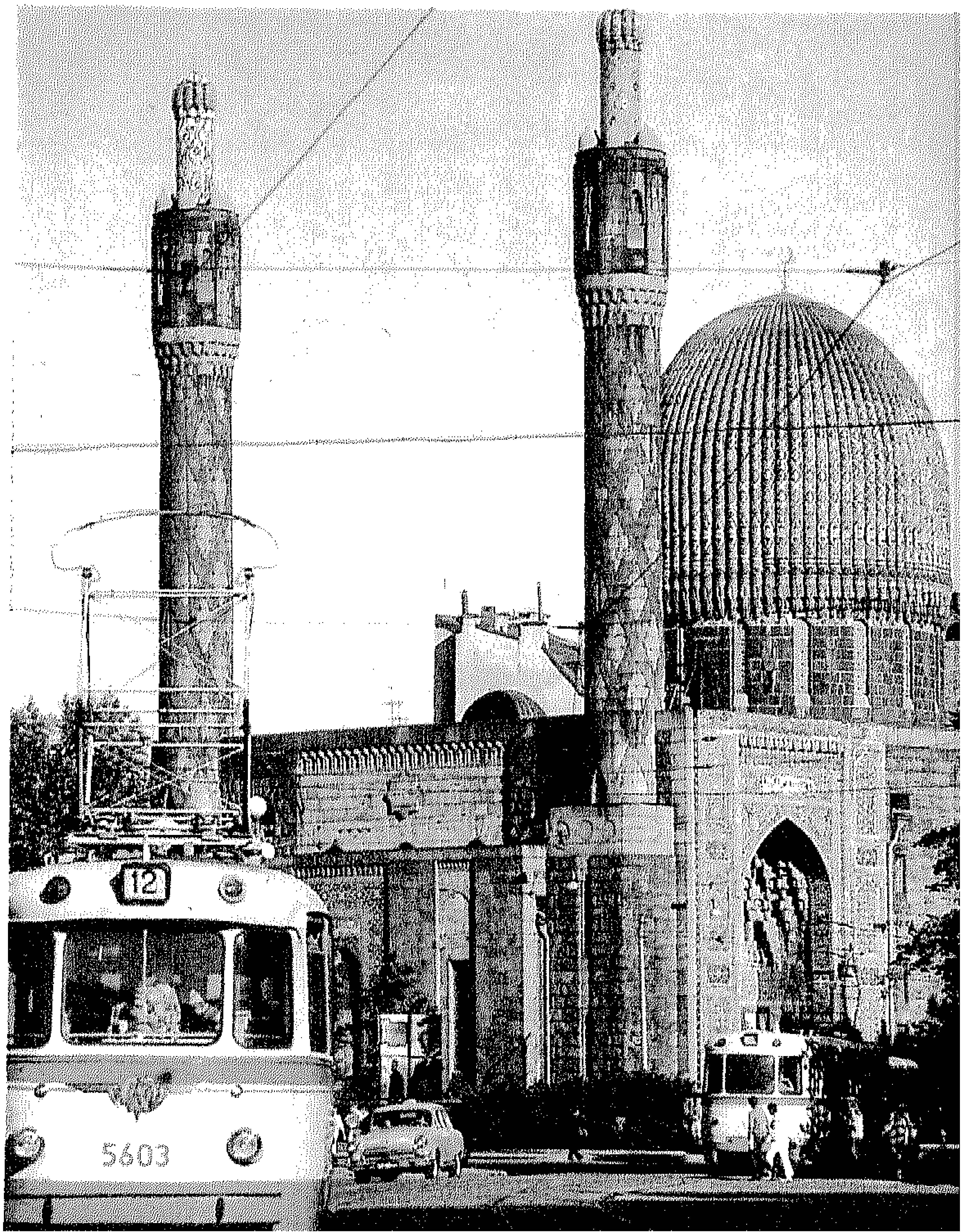

مدرسة شيردور في سمرقند.

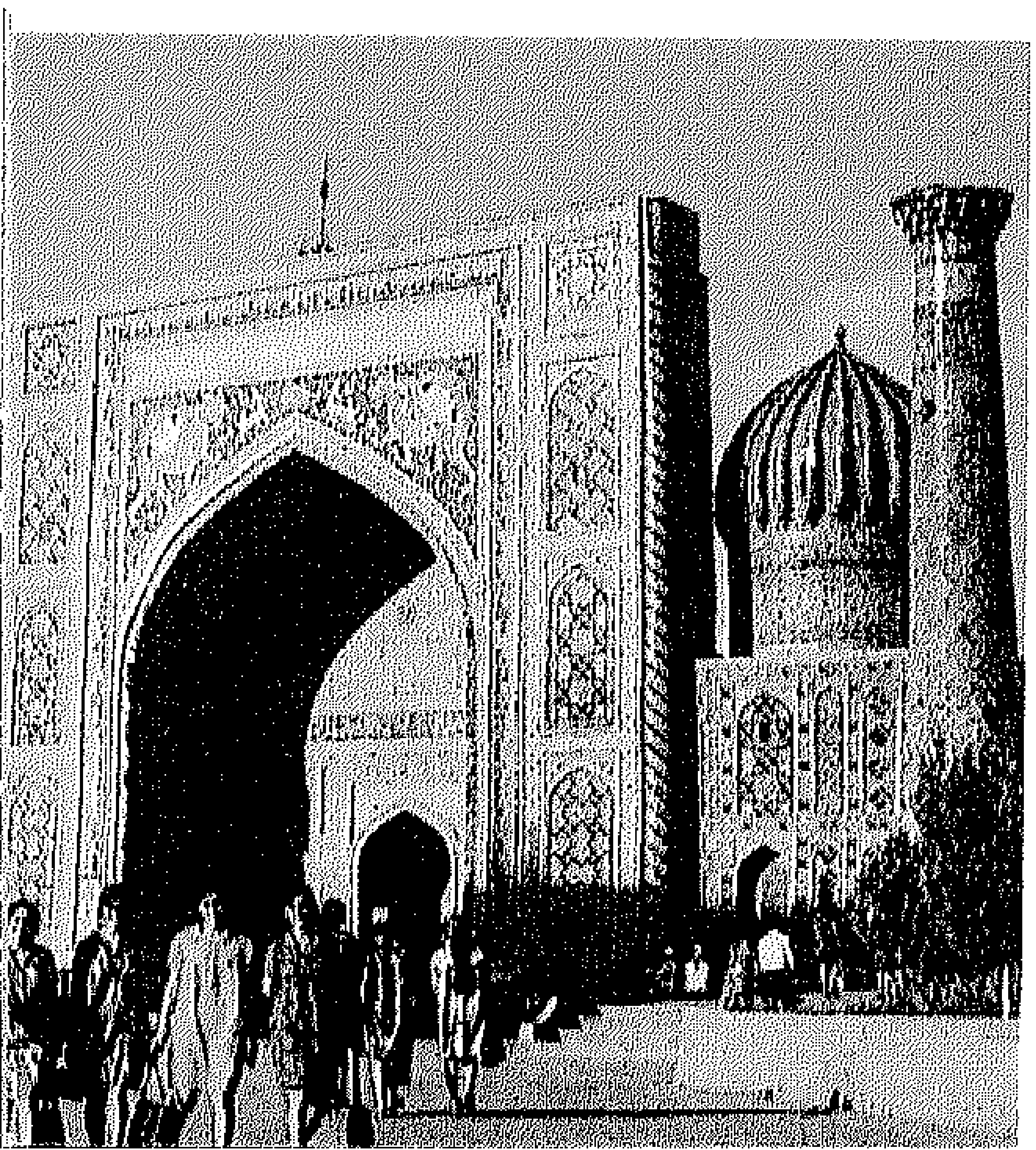

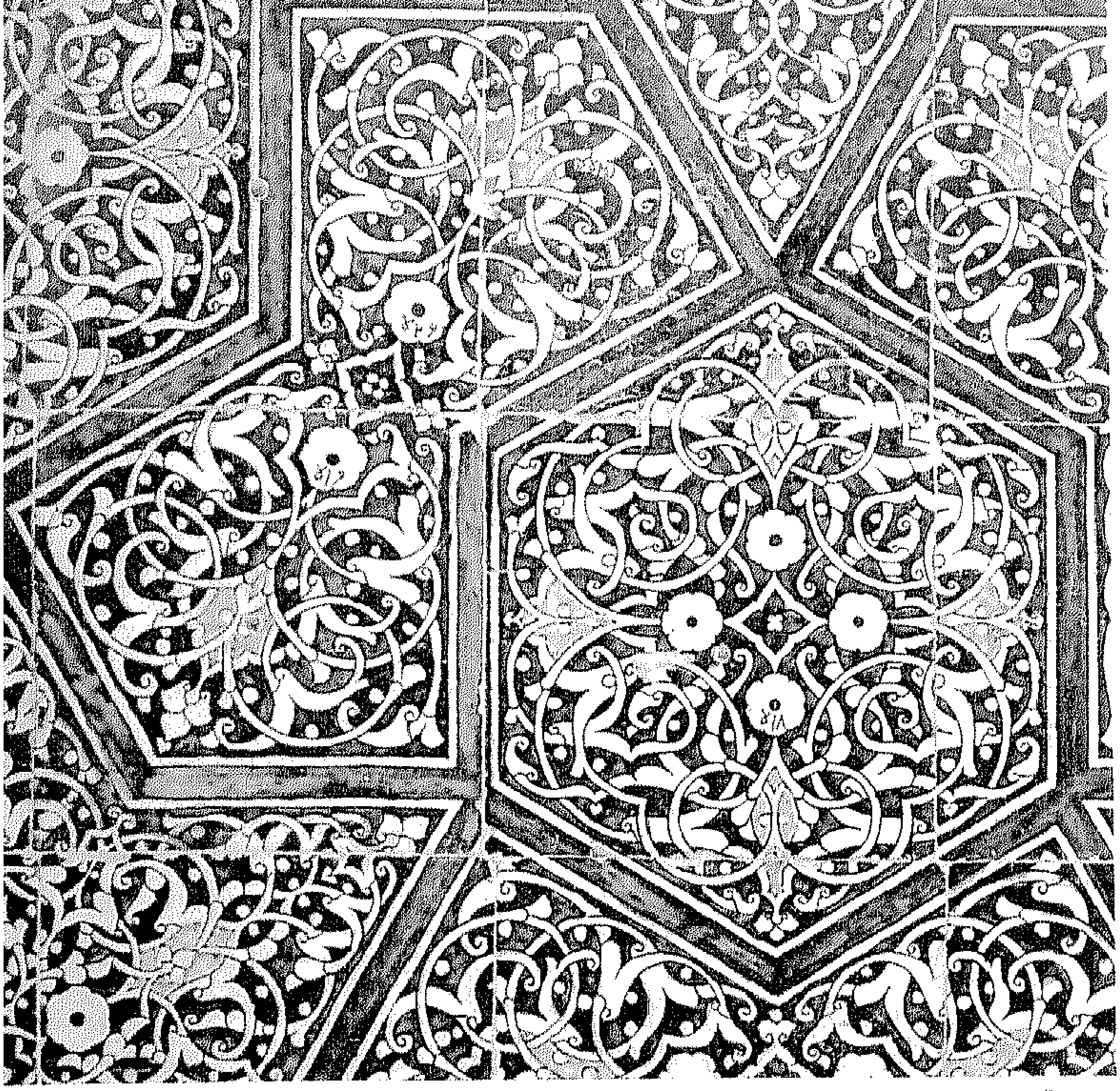

قسم من الواجهة المكسوة بالبلاط في قصر تاشخولي في خيوة.

كدرجان خيداروف نقاش الخشب الاوزبكي الشهير يكمل قطعة من النقش الزخرفي لطاقم من الاثاث الشرقي.

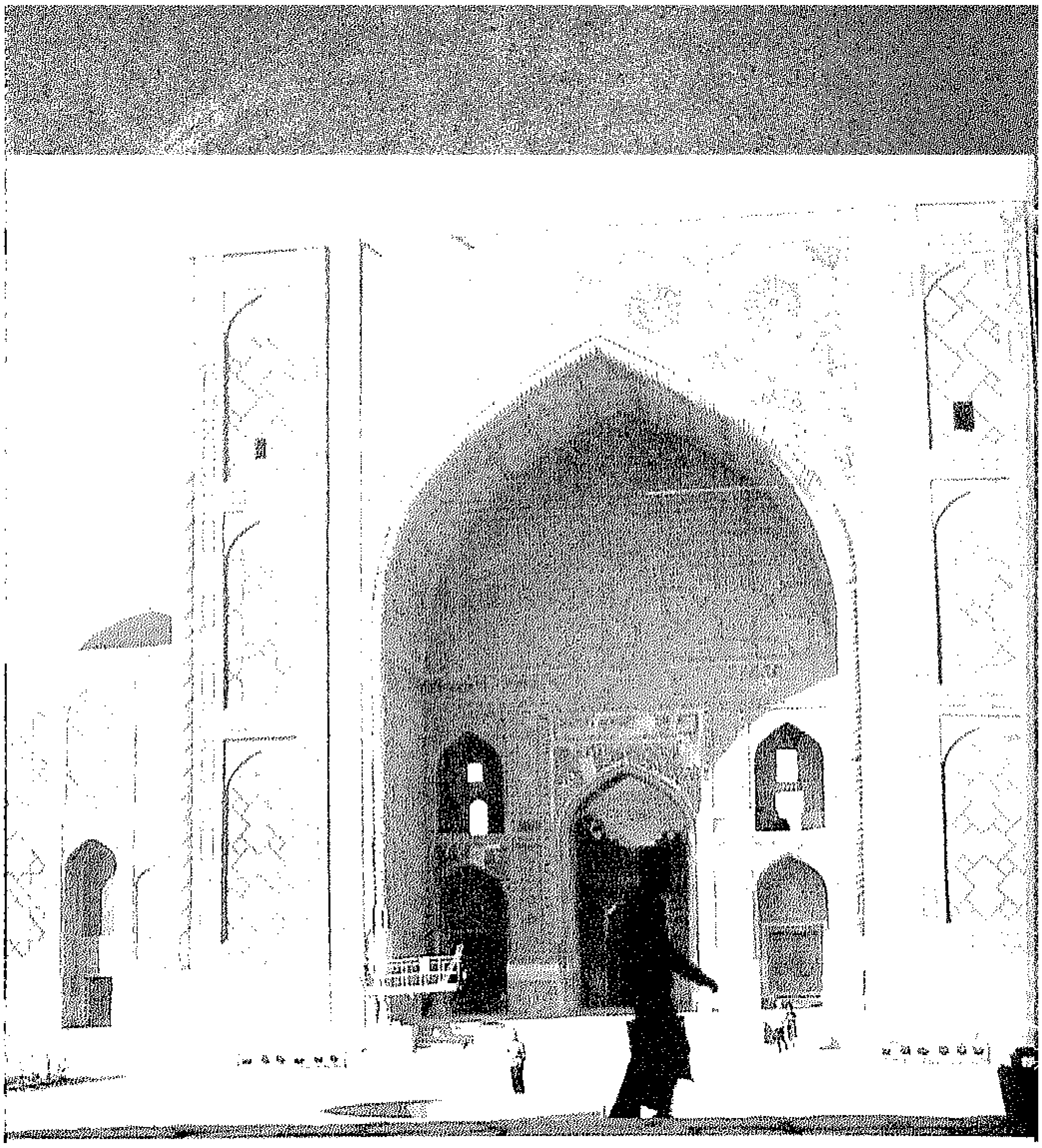

مدرسة أولوج بيك فى ميـــدان ريجستان فى سمرقند.

فى جامع مدينة أوفا بجمهورية بشكيريا.

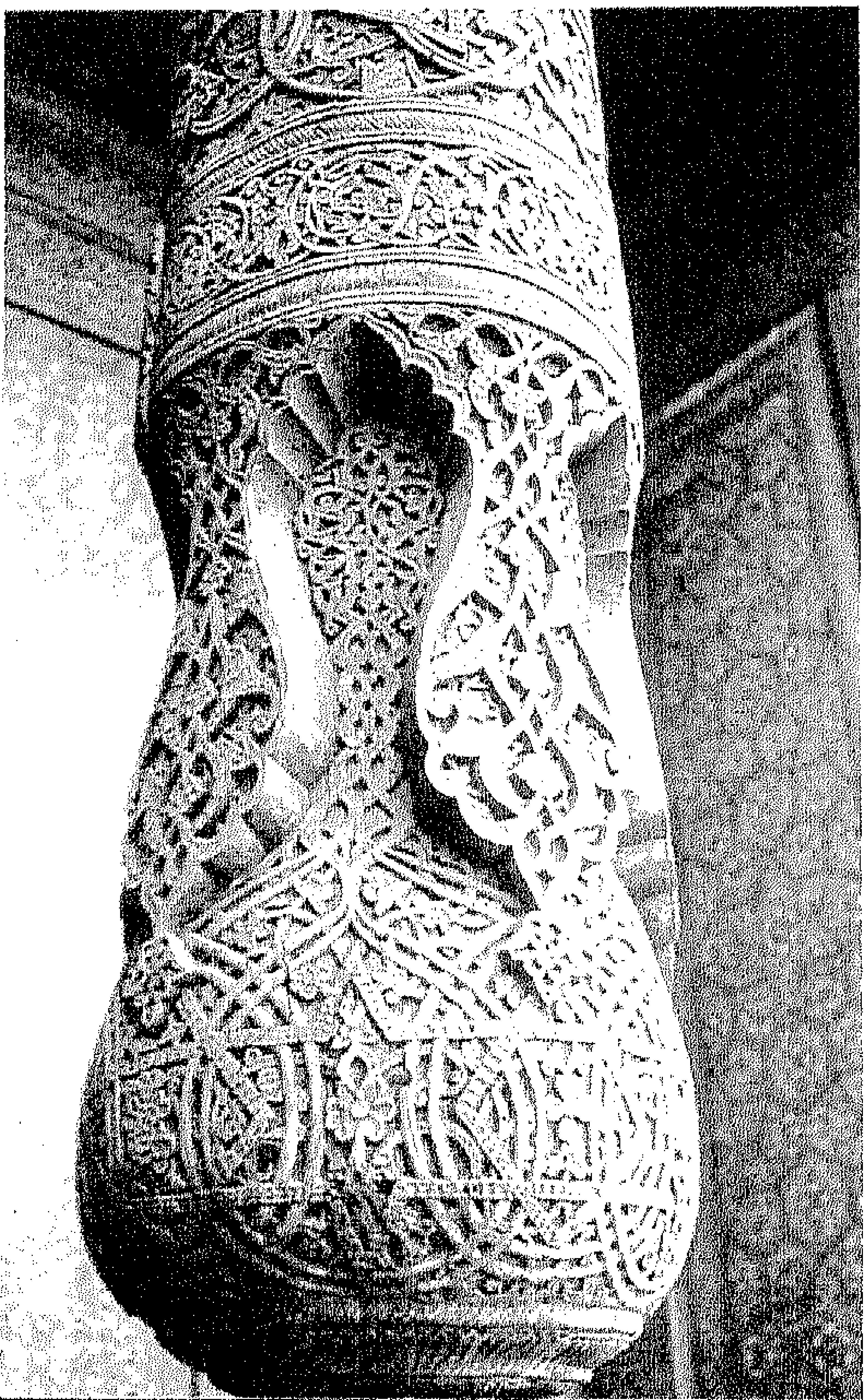

عمود خشبى منحوت فى مجموعة «ايتشان كالا» للاثار المعمارية فى خيوة.

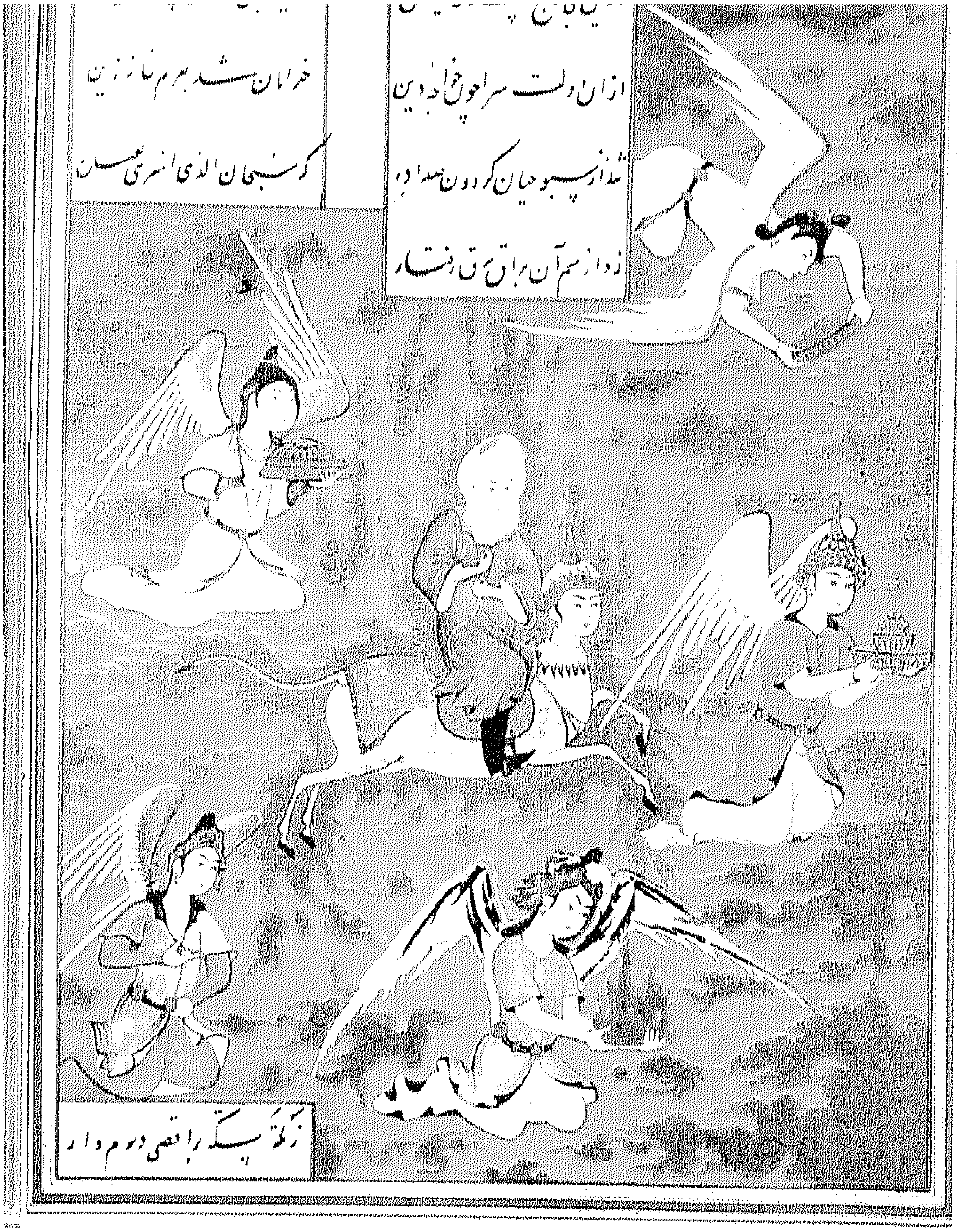

نمنمة تلاميذ كمال الدين بهـ
أواخر القرن الـ ١٥ او الـ ٦
من مجموعة معهد الدراسات الث
لاكاديمية العلوم الاوزبكية.

عينة من تحف فن الحفر على الم
من بخارى.

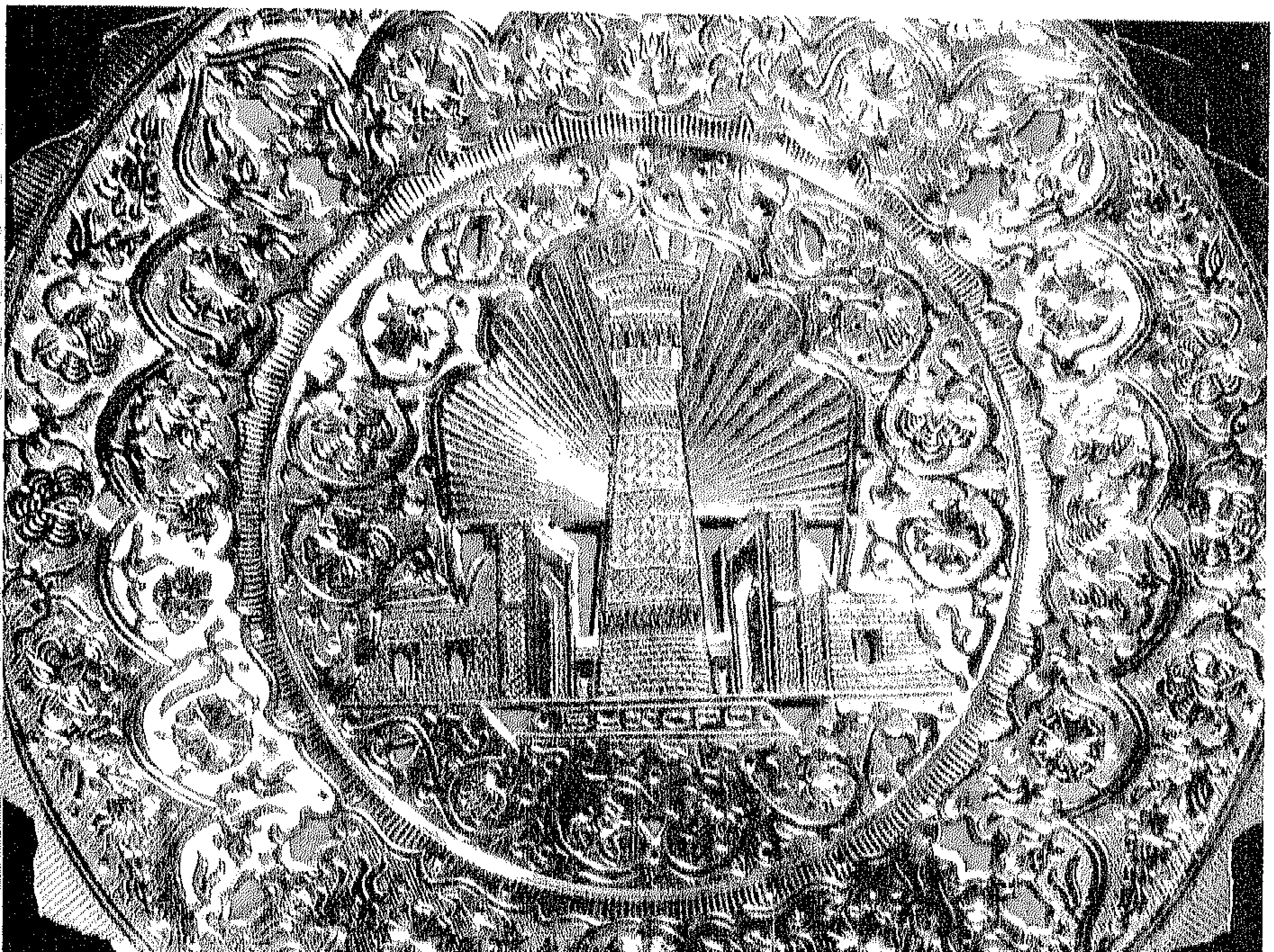

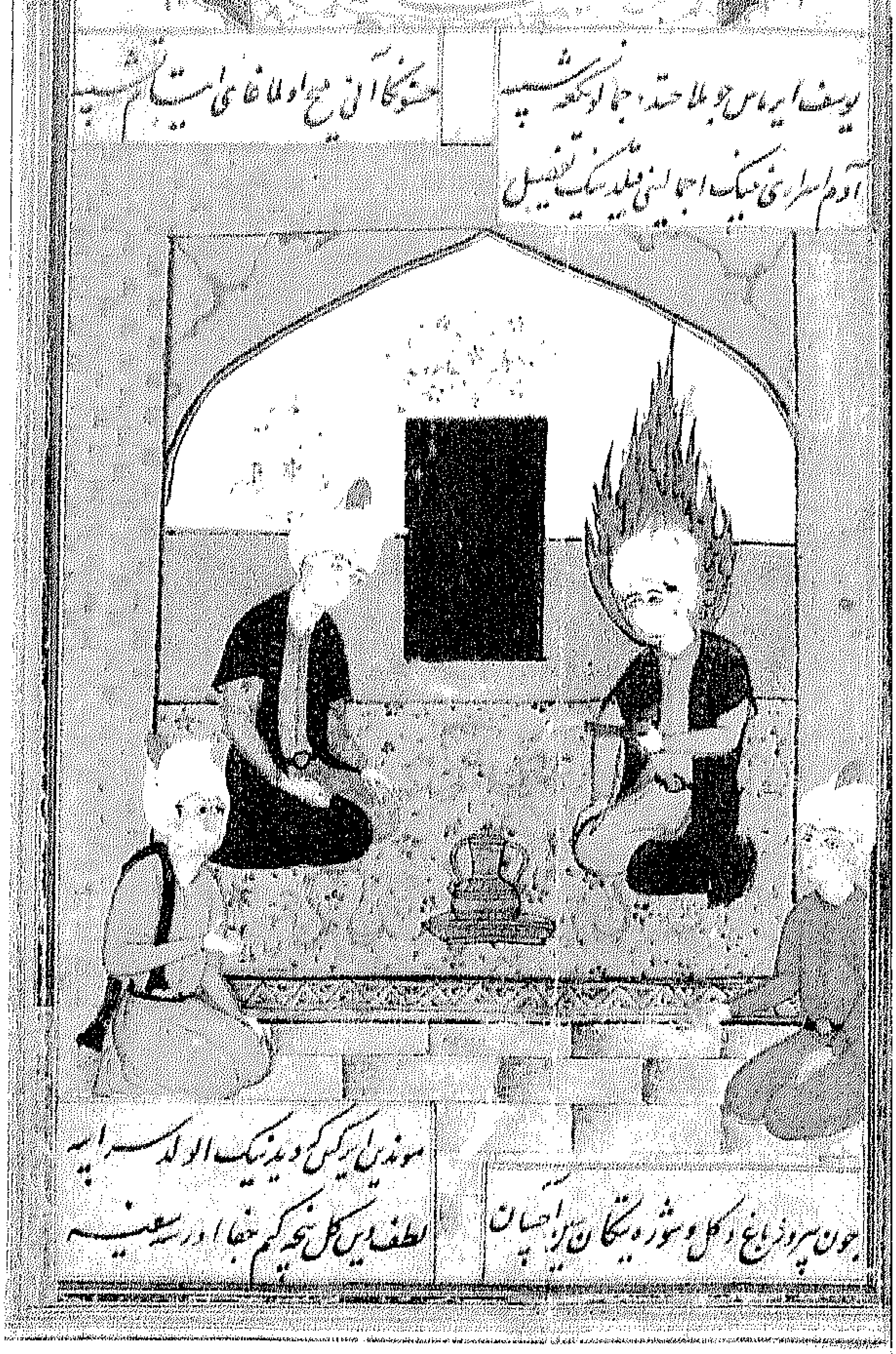

نمنمة من مخطوط «ديوان» نوائي أواخر القرن الخامس عشر.

سجادة تركمانية يدوية الصنع.

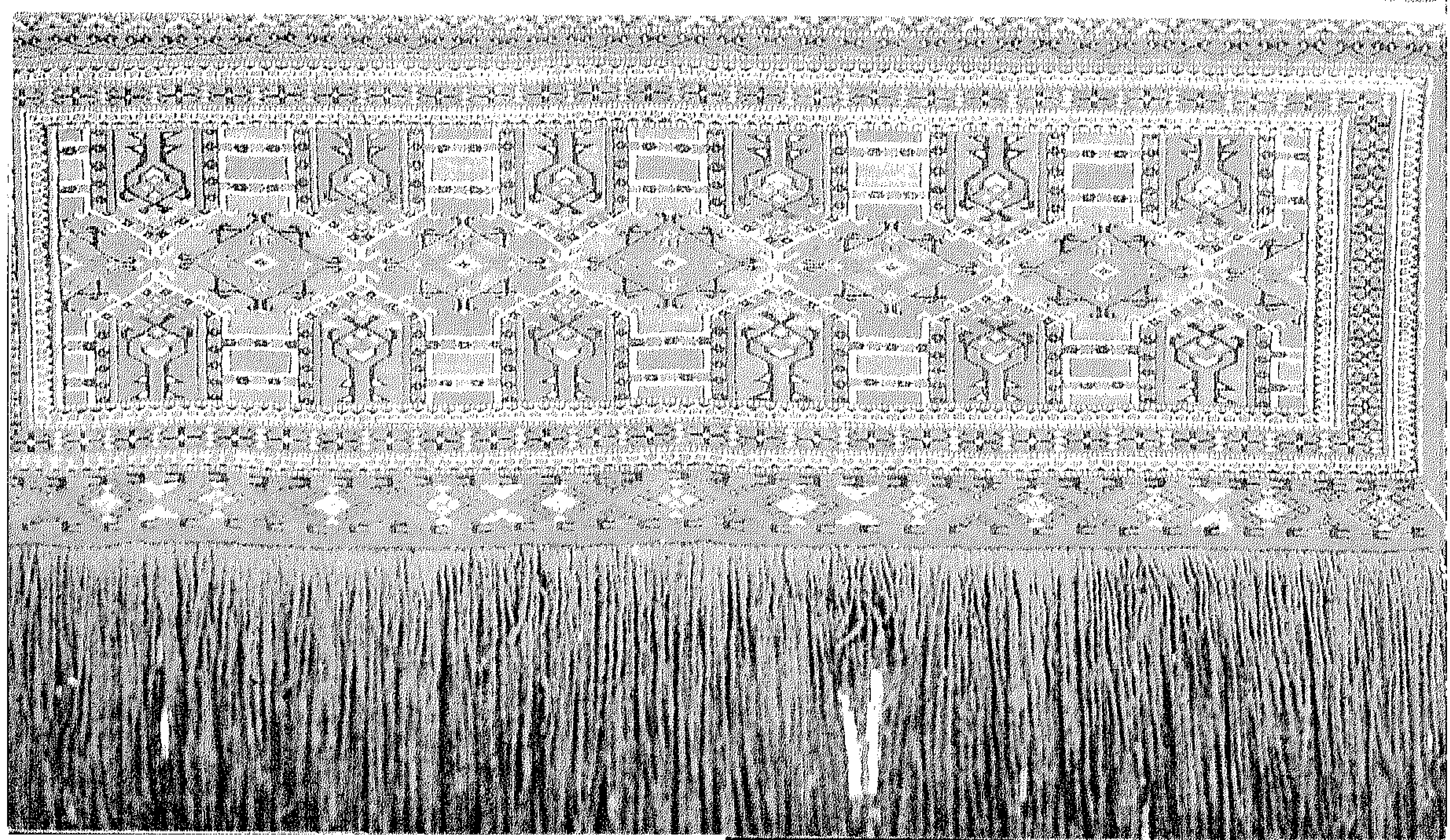

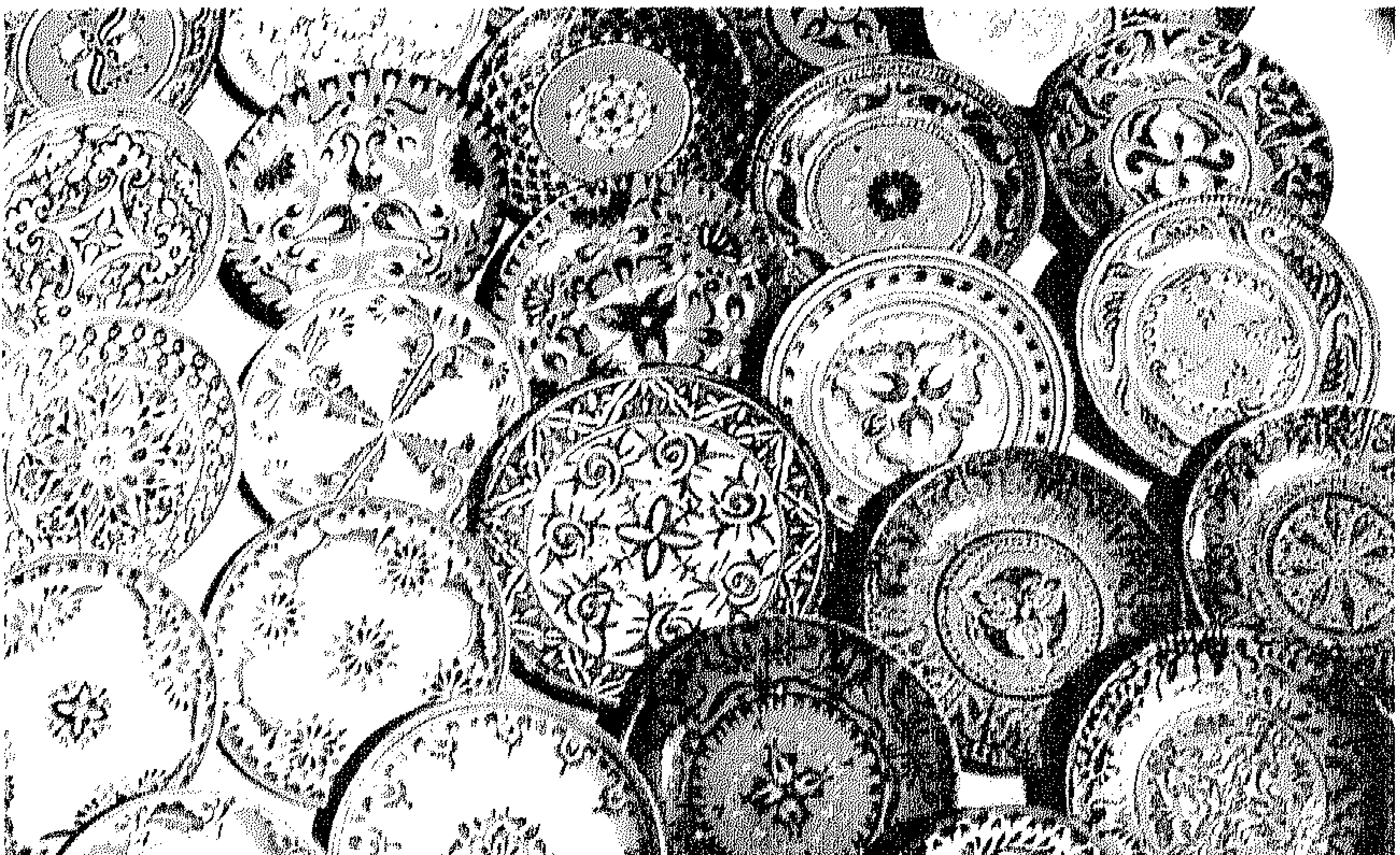

ادوات فضية من صنع حرفيين شعبيين في قريــــة كوباتشي بداغستان.

حزف من صنع اساتذة الفحار من مدينة آنديجان بأوزبكستان.

ويوجد كذلك عدد من السور المنفصلة، وأجزاء من القرآن الكريم. وتحتل أهمية خاصة نسختان من القرآن الكريم ترجعان الى القرن السابع عشر أخذتا عن التتار الليتوانيين، الذين احتاجوا بعد أن فقدوا لغتهم، الى ترجمة الى اللغة البيلوروسية التى كانوا قد تبنوها.

وفى مرسوم صدر فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٧، بناء على مبادرة من لينين، منحت الحكومة السوفيتية الجديدة الاسلام، باعتباره عقيدة تعتنقها شعوب روسيا المسلمة، المساواة الكاملة مع كافة العقائد الاخرى ومنح المسلمون حقوقا متساوية مع كافة المواطنين الاخرين. وفى ندائها الى الشعوب الاسلامية أعلنت الحكومة السوفيتية: «ومن ثم فان معتقداتكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية تعتبر حرة وحصينة. نظموا حياتكم القومية بحرية دون أى تدخل أو عائق». وتوضح قضية مصحف الخليفة عثمان بجلاء الاحترام الذى أبدته الدولة الاشتراكية على الدوام للمسلمين.

ففى السنوات المبكرة للاسلام نقل هذا الاثر المقدس لدى كل مسلم وهو النسخة الاصلية الوحيدة من القرآن التى كتبت بأمر الخليفة عثمان الى سمرقند حيث احتفظ بها فى مسجد خوجه أحرار فالى. وهناك، ومع مرور الزمن اختفى عدد من صفحاته. وفى عام ١٩٠٤ بيعت النسخة بثمن بخس لجنرالات القيصر وأودعت المكتبة العامة الامبراطورية فى سانت بطرسبرج. وحاول المسلمون المرة بعد الاخرى استردادها، ولكن دون نجاح. وفى الحقيقة، فقد حاول الجنود المسلمون اثناء ثورة فبراير ١٩١٧ البرجوازية اقتحام المكتبة ولكن الحكومة المؤقتة أوقفتهم.

وبعد ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ توجه المجلس الاسلامى فى بتروجراد، لينينجراد الان، بطلب الى لينين الذى أعطى تعليماته على الفور باعادة القرآن. وفى نفس الوقت وضعت مئذنة سويومبيك فى مدينة كازان على الفولجا ومسجد فى مدينة أورنبرج تحت تصرف الجاليات الاسلامية.

وفى البداية كان مصحف عثمان تحت مسئولية المجلس الاسلامى الوحيد فى البلاد فى ذلك الوقت، فى أوفا. وفى عام ١٩٢٣ أعيد ثانية الى آسيا الوسطى ومنذ ١٩٤١ وضع فى حافظة خاصة فى متحف طشقند لتاريخ شعوب أوزبكستان، حيث يجرى عرضه دوريا.

والزائر لطشقند، عاصمة أوزبكستان سوف يجد فى شارع على شير نوائى، مبنى من اربعة طوابق هو معهد المخطوطات الشرقية التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية، والذى أسسه المستشرق السوفيتى البارز البروفسور حامد سليمانوف، المتوفى عام ١٩٧٩.

وقصة حياة هذا الرجل تعلمنا الكثير. فلقد حدث أثناء سنوات دراسته أن زارته سيدة عجوز تبلغ من العمر ٧٠ عاما وسلمته مجموعة من الكتب قالت أنها كتب قيمة. وعندما أطلع على المجموعة اكتشف مجلدات عديدة

البروفسور نيفين بولان عضو اكاديمية العلوم بايرلندا وأستاذ جامعة دبلن فى زيارته لمقر الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان.

فى مكتبة الكلية الدينية بطشقند.

تضم مكتبة الادارة الدينية مجموعة غنية
من الاعمال الدينية والدنيوية بالاضافة الى
نسخ فريدة من القرآن الكريم.

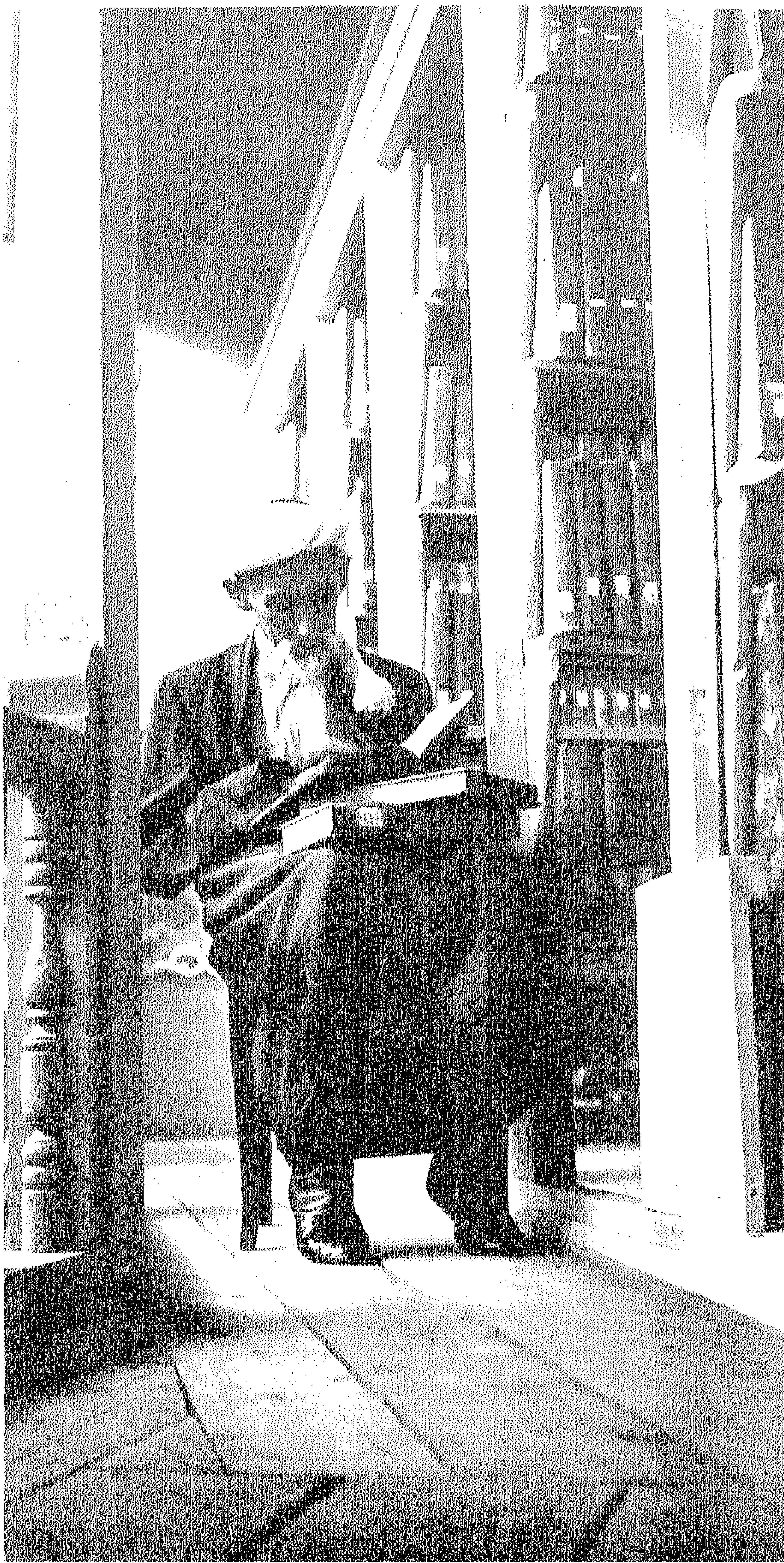

فى قسم الكتب النادرة بالمكتبة.

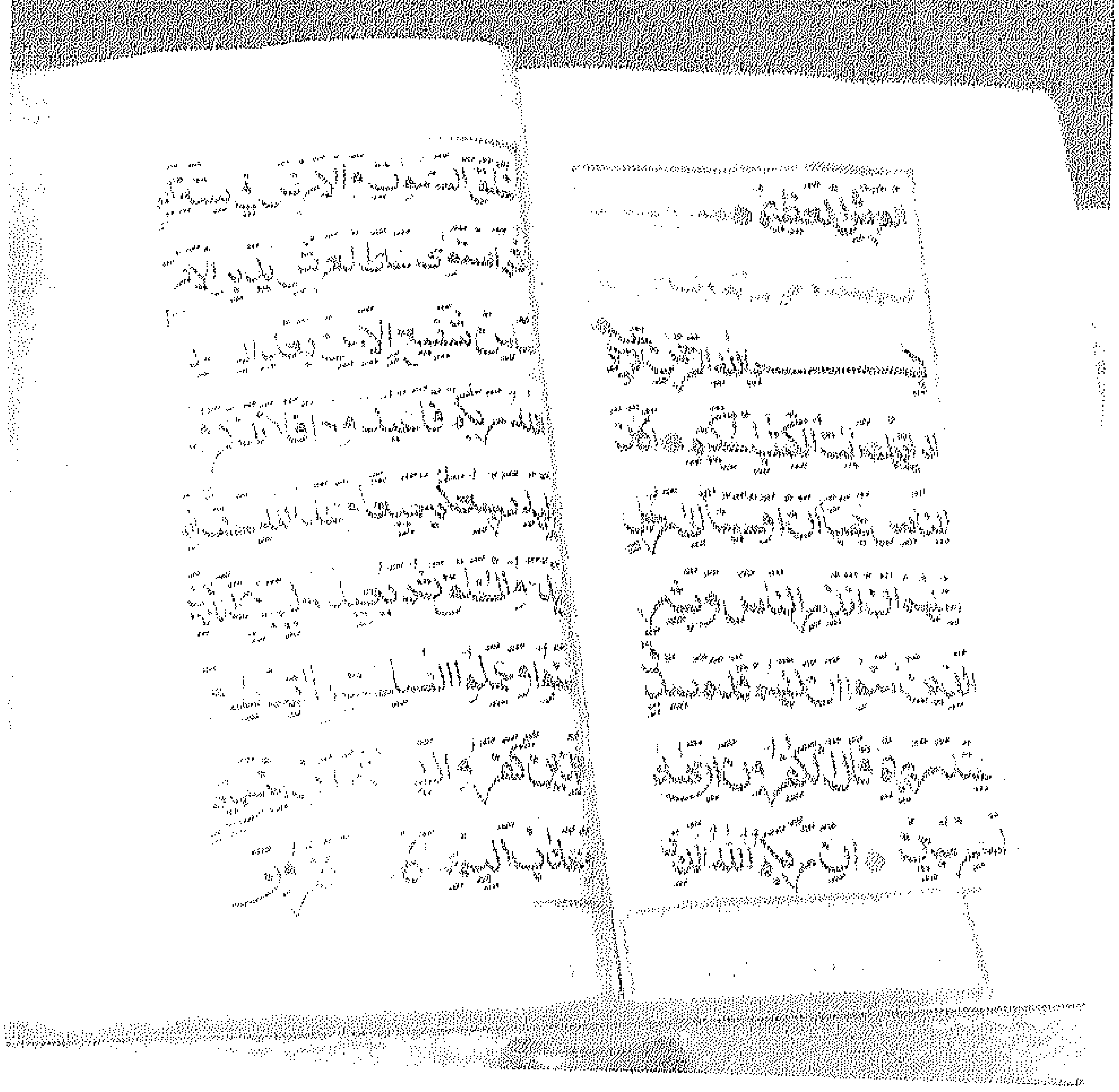

نسخة فريدة من القرآن الكريم في مكتبة الادارة الدينية.

الشيخ حسن مظفروف من ابناء طشقند والبالغ من العمر ٩٣ عاما يقرأ القرآن الكريم.

ملفوفة بالجلد وعندما فتح أحد هذه المجلدات كان كتاب على شير نوائى «فرحات وشيرين» مع رسوم توضيحية لبهزاد (١٤٥٥ — ١٥٣٥/٣٦). وهو فنان بارز من مدرسة هرات للمنمنمات، التى أثرت بقوة على مدارس التوضيح بالخط فى ايران والهند وآسيا الوسطى. وتقول ملحوظة بخط الكاتب على الصفحة الاخيرة أن «هذه النسخة قرأها واعتمدها أستاذى الذى أكن له احتراما عميقا، على شير نوائى».

وحدد ذلك مستقبل سليمانوف، فيما بعد وأصبح مستشرقا بارزا ذا معرفة واسعة بتاريخ وثقافة شعوب الشرق، يتكلم بطلاقة اللغات التركية والعربية والفارسية والروسية والانجليزية. لقد كشف وكتب عن المؤلفات الادبية التى أعتقد أنها فقدت. ففى أوقات مختلفة وبطرق مختلفة وجدت المخطوطات الاصلية لكثير من الفلاسفة البارزين فى آسيا الوسطى طريقها الى المتاحف والمكتبات فى فرنسا، والمانيا، وبريطانيا، والهند. وبفضل جهود سليمانوف التى لا تكل حصل معهده على نسخ منها وضعت الان تحت تصرف الباحثين والطلبة وجمهور القراء العاديين.

فن خالد

حقيقة أن الشعوب الاسلامية لديها فنون جميلة، وعلى الاخص الرسم بالزيت، قد يثير الدهشة، حيث أنه عادة ما يعتقد بأن الاسلام يحرم تصوير الكائنات الحية. بيد أن ذلك لا ينطبق على كافة العصور ولا على كافة الشعوب الاسلامية.

ورغم أنه لا يوجد لدينا سوى نماذج قليلة للغاية من الصور الزيتية لاسيا الوسطى من وقت مبكر، فانها تبين غنى الفنون الجميلة التقليدية التى وجدت قبل الفتح العربى واذا ما أخذنا قسما من المنزل الضخم الذى اكتشفه الاثريون فى افروسياب، قرب سمرقند عام ١٩٦٥، فسوف نجد أن بعض الغرف بها لوحات جصية ترجع الى بداية القرنين السابع والثامن. وأحد هذه اللوحات الجصية، التى وجدت فيما يعتقد بأنه قاعة استقبال، تصور بشكل زاه حفل زفاف ووصول بعثة محملة بالهدايا لحاكم سمرقند.

ورغم القواعد القائمة استمرت تقاليد الفنون الجميلة باقية فى زخارف القصر، وزخرفة المخطوطات، والفنون الشعبية والخزف. وهكذا، يمكن للزائر أن يرى فى متحف الدولة لفن شعوب الشرق فى موسكو نسخة ملونة بالحجم الطبيعى لتفاصيل الرسوم التى تزين القاعة الضخمة فى منزل السيد الاقطاعى فى بنجيكنت (تاجيكستان) فى القرنين السابع والثامن. وتبين اللوحات الجصية، التى نفذت بمهارة وزخرفت باتقان، عددا من الرجال يتناولون الطعام تحت مظلة، وهم يلبسون القفاطين الفاخرة، ويلفون حول خصورهم أحزمة من الذهب. والخطوط الانسيابية تعبر بشكل جيد عن وضع وحركات كل منهم. وقد تم طلاؤهم باللون البرتقالى الاحمر الواضح على أرضية داكنة.

وأحد النماذج الرائعة لفن آسيا الوسطى فى القرن الثانى عشر يتمثل فى اللوحات المنحوتة كالسجاد من الرخام الابيض على جدران وأعمدة

القاعة الكبرى فى قصر ترمز، فى جنوب أوزبكستان. وقد استخدم العديد من الوحدات الهندسية والازهار ويرى المرء على بعض اللوحات ممتزجا مع الزخرفة المحيطة صورا مرسومة لاسود ضخمة.

بيد أن الفنون الجميلة للشعوب الاسلامية فى آسيا الوسطى وما وراء القوقاز بقيت أساسا فى المنمنمات والرسوم على الفخار والمنسوجات، ولدرجة ما على السجاد.

وجرت زخرفة المخطوطات الدنيوية فحسب، وعلى الاخص الشعر. وربما يجد المرء فى أكبر مكتبات موسكو، ولينينجراد، وطشقند، وباكو، وكذلك فى متاحف ومكتبات، والمجموعات الخاصة، فى فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة، مخطوطات الشعراء من أمثال روداكى، ونظامى، وفردوسى (٩٣٤/٤١ — ١٠٢٠)، ونوائى وسعدى (١١٨٤ — ١٢٩١)، وحافظ وجامى وقد زخرفها أساتذة عظام فى الماضى وبالمصادفة، فمن المعروف أن الرسام الهولندى العظيم رامبرانت كان لديه مجموعة من المنمنمات قام بدراستها وأعاد تقديمها فى أعماله.

ولزخرفة المخطوطات جاذبية جمالية كبيرة. فكل منمنم يوضح تاريخ وثقافة وحياة الشعوب الاسلامية. ووصل هذا الفن الى قمته خلال حكم التيموريين. وحتى تيمور الذى أصبح اسمه رمزا للقوة البربرية، كان يطرب لشعر حافظ ونظامى. وقد أشار المؤرخون الى أنه كان يعشق الرسم وأمر برسم صور له ولاسرته. ويقال أن أولوج بيك قد احتفظ فى مكتبته الشهيرة بصور زيتية لاساتذة أوربيين، ورثها عن جده تيمور.

وفى القرن الخامس عشر أصبحت هرات، التى تقع الان فى افغانستان مركزا هاما للفن الشرقى. وأسست فى هذه المدينة حوالى عام ١٤٣٣ أكاديمية لزخرفة المخطوطات قدمت اسهاما بارزا فى تطوير الفنون فى الشرق بشكل عام، وليس فقط فى آسيا الوسطى.

وازدهرت الاكاديمية فى ظل حكم السلطان حسين، الذى حكم من ١٤٦٩ حتى ١٥٠٦، وفى نفس الوقت الذى عاش فيه وعمل فى المدينة على شير نوائى، وجامى وغيرهم من عظماء الرجال. وقد أطلق على أحد تلاميذها، بهزاد، الذى برع فى فن المنمنمات اسم رفائيل الشرق، وسرعان ما حاز شهرة واسعة واشتد طلب هواة الجمع على أعماله، وكذلك المتاحف الاوربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد بحثت عن أعماله بنفس الحماس الذى بحثت به عن أعمال الاساتذة الايطاليين والهولنديين فى القرن الخامس عشر.

ومن ١٤٦٨ حتى ١٥٠٦ ترأس أكاديمية الفنون فى هرات، ولكنه، على خلاف الاساتذة الاوربيين، لم يكن لديه مرسم، وانما مجرد حجرة زينت جدرانها بأبيات من أشعاره المفضلة، كتبها أفضل الخطاطين الذين أعجبوا بأعماله.

ومن بين المجموعة النفيسة للمخطوطات الشرقية الموجودة بالمكتبة العامة فى لينينجراد قام بهزاد بزخرفة العديد منها. ومن الصعب فى هذا

الحرفى الشعبى التركمانى راج ساميتكيازوف
مع احد أباريقه النحاسية الجميلة للغاية .

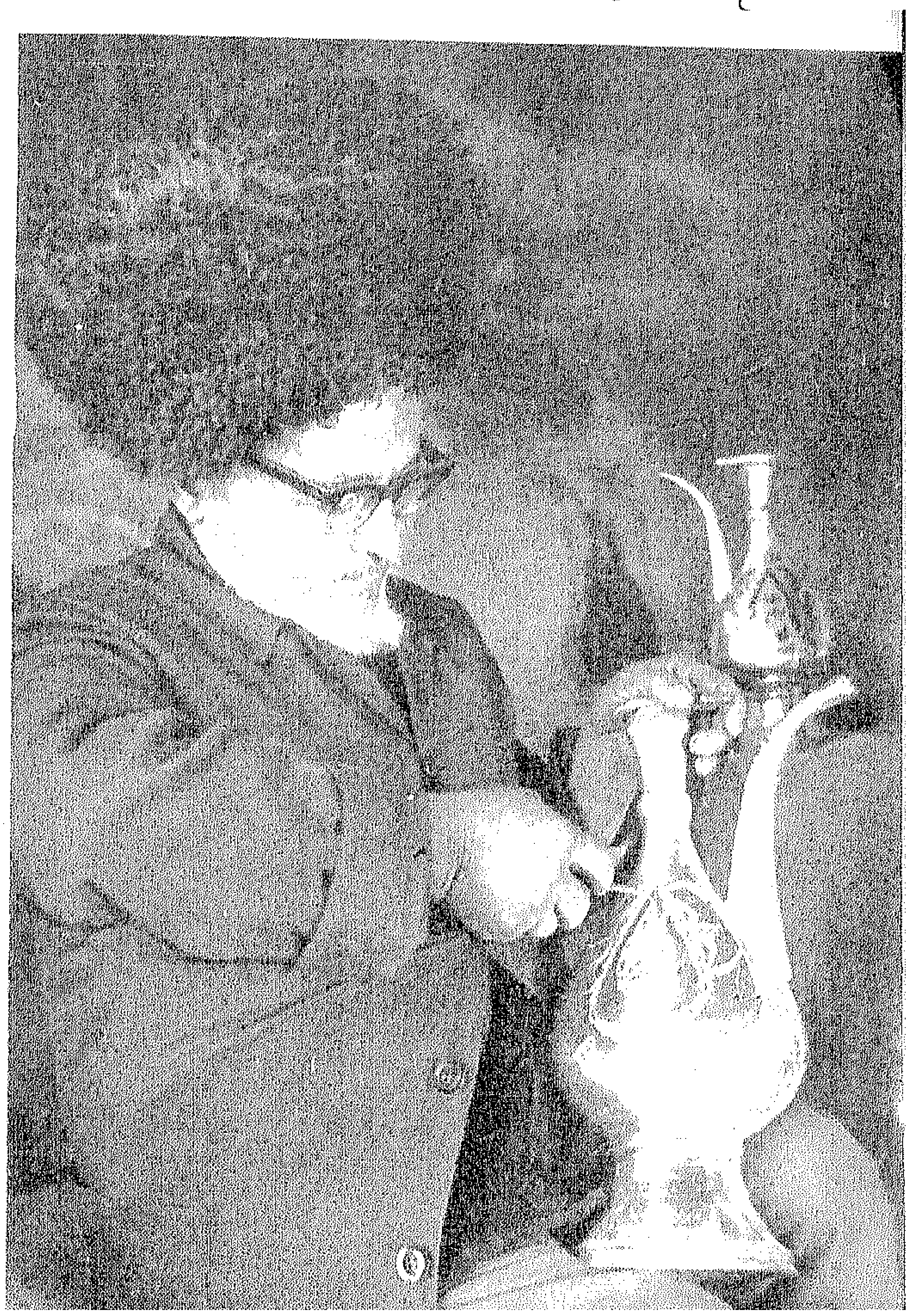

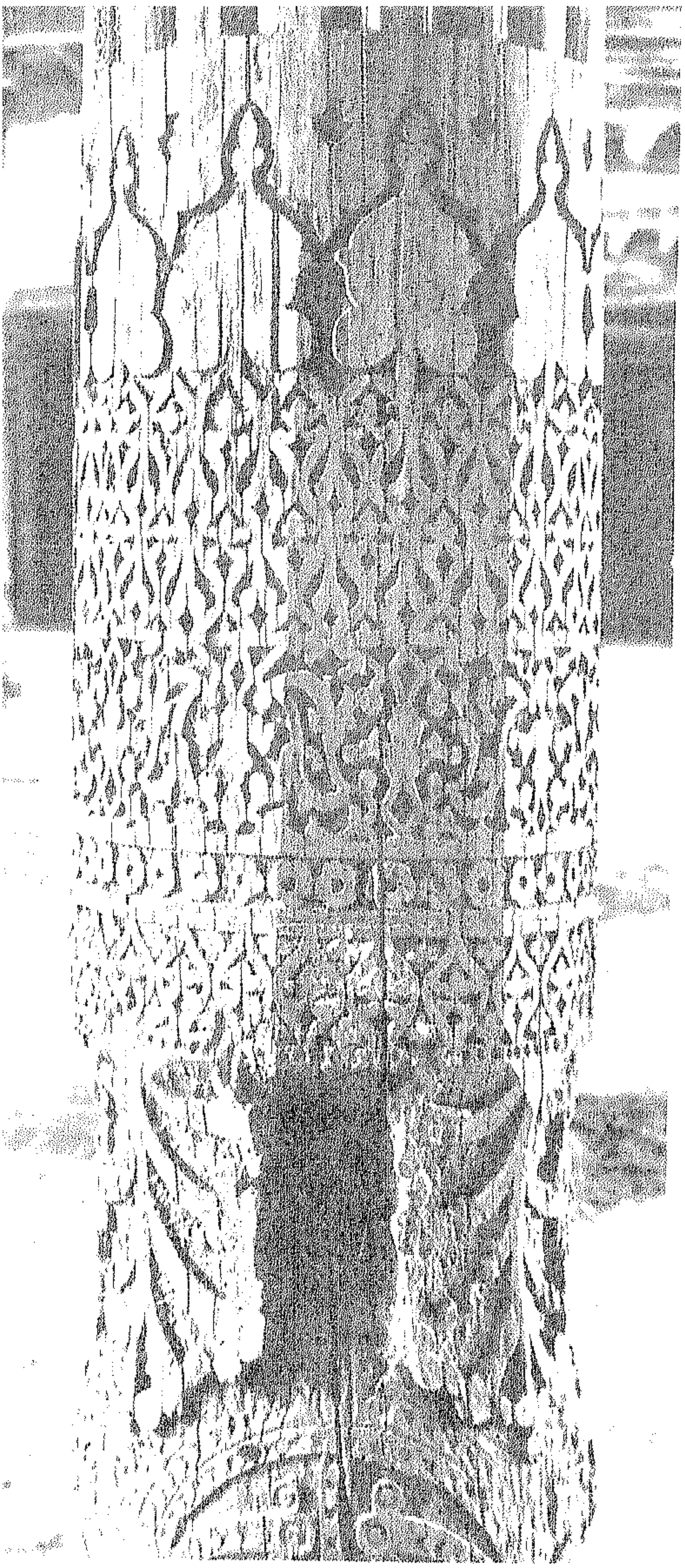

عمود خشبى منحوت فى مسجد جمعة
بخيوة .

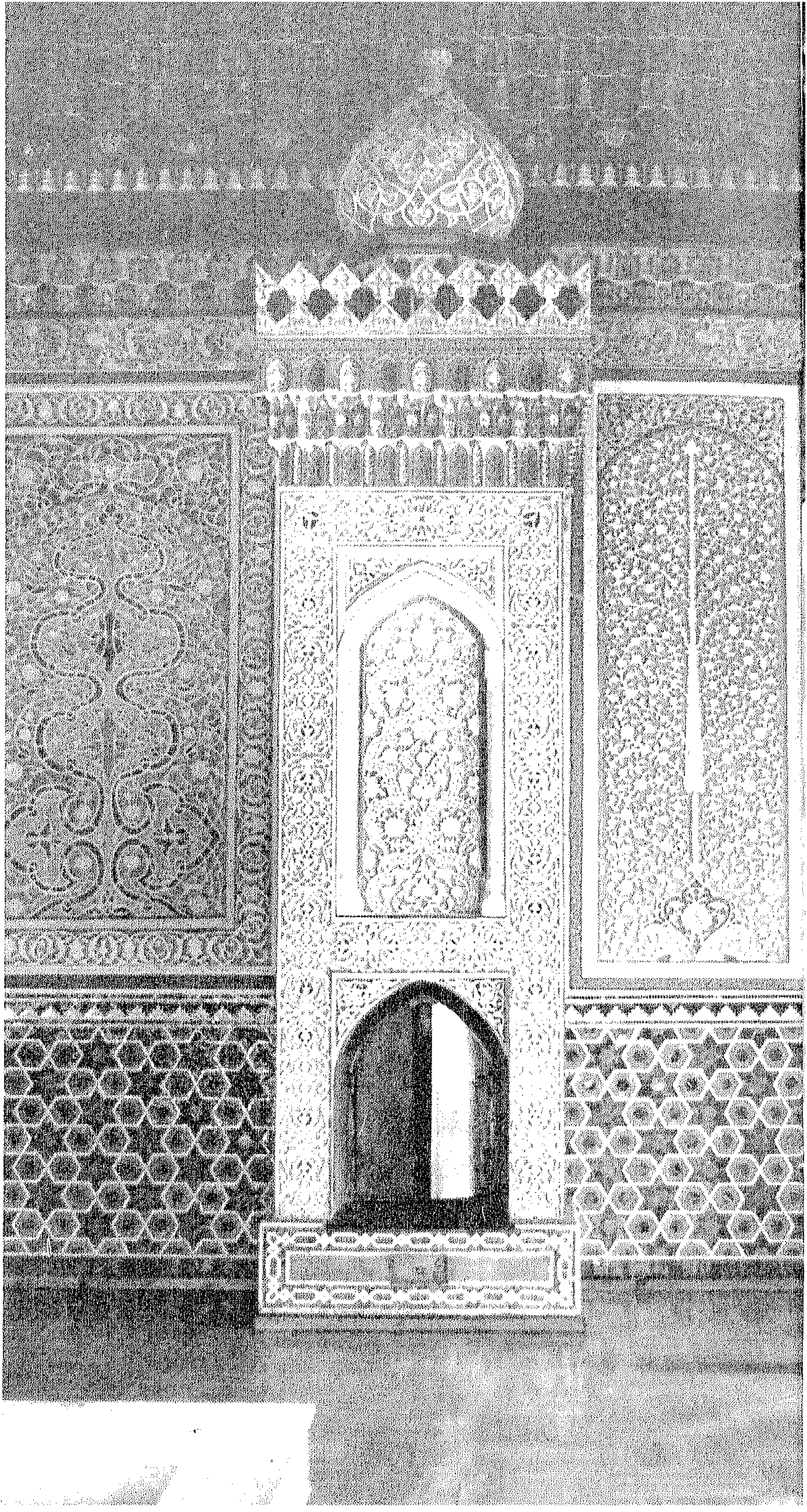

جانب من الديكور الداخلي في احدى قاعات متحف الفن التطبيقي الشعبي بطشقند .

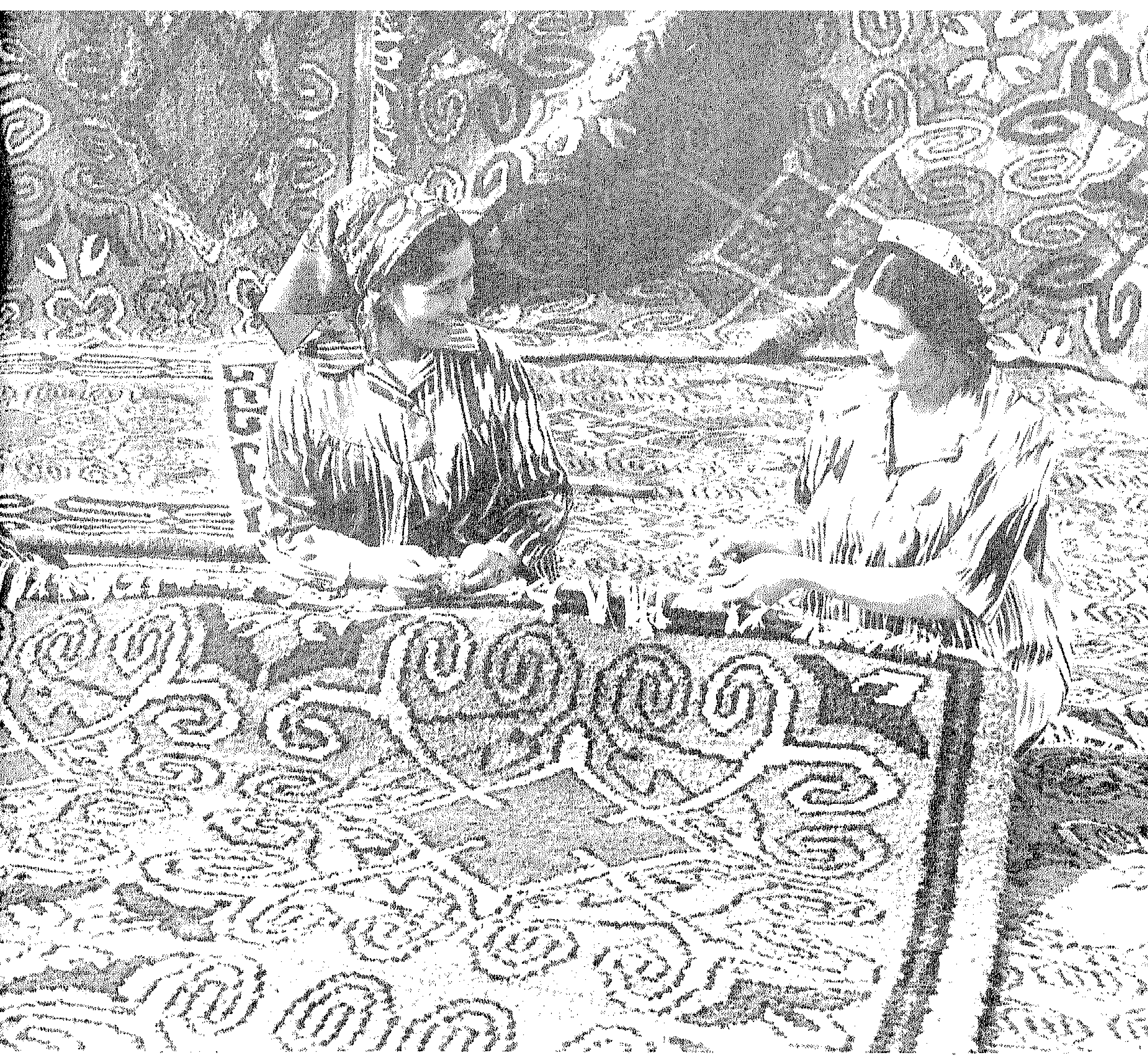

قرية آيم فى وادى فرغانة بأوزبكستان قد
اشتهرت بنساجى السجاد المهرة من قديم
الزمان .

ينقل الاسطوات القرغيزيون من جيل لاخر فن نسيج السجاد القديم.

الحرفى عبد الشريف ماجبكوف يجمع النوافذ الشبكية المنحوتة المخصصة لترميم قصر تاشخولى فى خيوة.

الكتيب المحدود أن نصف كل هذه المنمنمات النفيسة، ولهذا السبب اخترنا اثنين فقط من أعمال هذا الفنان زخرف بهما مخطوط الشاعر الهندى خسرو دهلوى (١٢٥٣ — ١٣٢٥) «قصة حب ليلى والمجنون».

لقد زخرف كل المخطوط بشكل رائع بوحدات من الازهار تزين هواش الرق المذهب الحوافى. والمنمنم الاول، ويعود الى عام ١٤٩٥، يصور المجنون وليلى فى المدرسة. والعمارة فى غاية الجمال مع زينة بالخط بأوكسيد الحديد موضوعة على الافريز الاخضر العلوى ورواق يرتكز على أربعة أعمدة طليت واجهاتها بالاحمر. والجزء العلوى من الجدران أزرق فاتح، مزين بوحدة زخرفية بالاصفر، والازرق الفاتح والداكن والاخضر الفاتح، وبكوة ذات لون وردى ضارب للحمرة وتحوى صورة لمتدليات. ورغم أن الالوان ليست رائعة للغاية، الا أن ترابطها مؤثر، ونجد أن بقع الالوان المتقابلة فى الوقت الذى تعطى فيه انطباعا بالتنوع الفريد، تمتزج فى نفس الوقت بطريقة متناغمة.

والمنمنم الثانى عبارة عن منظر حديقة ارضها ذهبية، والسماء ذات لون ازرق شفاف مع بعض السحب الرقيقة التى يحفها الذهب. ويقف رجل مسن على بساط ذو زخرفة جميلة ورائعة، وخادمين، أحدهما أسمر ملابسه بلون البرتقال وينحنى، داعيا ليلى والمجنون لان يخطوا فوق البساط. وتوزيع الالوان يماثل ما هو موجود فى المنمنم السابق، ولكنه يبدو أكثر اشراقا وتألقا، ومع ذلك فأنه لا يعطى انطباعا بالبهرجة.

ومخطوط على شير نوائى «ليلى والمجنون»، الموجود بمعهد طشقند للمخطوطات الشرقية، مزخرف برسوم وملفوف بجلد مزخرف بواسطة بهزاد. ويكشف فى الحقيقة عن الهام عظيم وعن حب الفنان العميق للمؤلف. وأحد هذه المنمنمات يمثل منظر طبيعى رائع نرى فيه على خلفية من الجبال وغدير فضى تمتد فوقه سماء ذهبية، المجنون المريض حبا يجلس مستندا الى ركبتى محبوبته، وترتدى الفتاة لباسا أخضر وأحمر، والفتى باللون الازرق، أما النباتات وعيون الحيوانات ذات اللون الذهبى اللامع فقد رسمت بعناية فائقة.

وتوجد المنمنمات التى رسمها بعض تلاميذ بهزاد المشهورين، مثل أجا ميريك وسلطان محمد، وكلاهما ينتسبان الى مدرسة تبريز فى مكتبات موسكو، ولينينجراد، وكييف، وقازان، وطشقند. وسواء نظرت الى الاغلفة الجلدية المزخرفة والمطلية باليد بصورة لا يمكن تقليدها، أو الى الخط والزخرفة الرائعة أو الى المنمنمات الرائعة نفسها، ستجدها جميعا فى حالة ممتازة بفضل جهود المعامل العديدة التى اقيمت لمهمة معينة هى المحافظة على ثروة الاسلاف، اذ أنه منذ الايام الاولى للحكم السوفيتى والدولة تهتم بحماية ودراسة هذه الكنوز، وأثرائها على الدوام.

وقد درس العديد من الفنانين السوفيت

المشهورين فن الزخرفة القديم ولم يستفيدوا منه فحسب فى عملهم، وانما دربوا زملاءهم الشباب. وواحد من أبرز هؤلاء الفنانين هو جنكيز أحماروف، الذى بعث زخرف ردهة مسرح الاوبرا والباليه الاوزبكى ورسم صورا لمؤلفات كتاب الجمهورية.

وانه لمن المصادفة أن الفن التقليدى لطلاء الجدران بوحدات هندسية ومن الازهار قد أعيد احياؤه بفضل العمل الدؤوب للباحثين والحرفيين. والزخرفات الجميلة العديدة التى نراها اليوم فى المكتبات، والمتاحف، والنوادى والمسارح تحمل التقاليد وتسير بها الى الامام، فيما يتعلق بالتصميم وتوزيع الالوان.

ومما له أهمية خاصة الفن التقليدى للوحات المرمرية. والزخرفة التى تشبه السجاد والتى استخدمت لتجميل الجدران فى متحف لينين ومحطات المترو فى طشقند، أو فى قصر الثقافة فى كييف، توحى برشاقة الزجاج الجيد الصنع.

وهكذا يزدهر التراث الثقافى الفنى للشعب اليوم، كى يحيا الى الابد.

* * *

يتملك أى زائر لمتحف الفنون والحرف الشعبية فى آسيا الوسطى والقوقاز شعور بالاعجاب، سواء فى موسكو أو لينينجراد، أو طشقند، أو أشخباد، أو دوشنبه، أو باكو، أو ماخاشكالا، أو أورجونيكيدزه فى اللحظة التى يرى فيها المنسوجات التى تبهر، والابسطة الفاخرة، والفخار ذى الالوان الزاهية، والمصنوعات الزجاجية، والمصوغات الفضية والذهبية، والنحت على الخشب والتطعيم بالصدف. وما الى ذلك.

وتحظى أبسطة وسجاجيد آسيا الوسطى بشهرة عالمية حقا وتوجد مجموعات فاخرة فى المتاحف فى موسكو ولينينجراد وطشقند. ويجرى تصنيفها وفقا لوظائفها: وهكذا فهناك سجاد للصلاة وأبسطة كبيرة للارضية، والاخرى تعلق على الابواب، وأبسطة للزواج، ومشايات وأصغرها حجما تستخدم كخرج للسرج وكثير غيرها.

لقد طور كل بلد تكنيكاته الخاصة فى نسيج وصباغة السجاد. ولاقت السجاجيد التركمانية تقديرا كبيرا من وقت بعيد، ورسوم هذه السجاجيد الرائعة الفريدة متنوعة للغاية حتى أنك من المستحيل أن تجد سجادتين تشبهان بعضهما بعضا. وكافة الرسوم ذات أصل قديم، ذات وحدات من الزهور تتركز فى الغالب حول شجرة رمان، أو شجرة سرو، أو نخلة، او اللوتس، أو الزنبق، أو وردة، ووحدات من الحيوان تشمل أسود، وخراف، وماعز، وخيول، وجمال وطيور مختلفة بخطوط رمزية.

وتضم مجموعة المطرزات الاوزبكية والطاجيكية الشهيرة فى متاحف موسكو، وطشقند، ودوشنبه معلقات كبيرة على الجدران تعرف باسم «سوزانى» ترجع الى ١٠٠ سنة مضت وبها رسوم رائعة لزهور ونجوم باللون الاحمر والاصفر او الازرق مطرزة علي حرير أبيض. وتتفوق بشكل خاص معلقات الجدران التى ترجع الى منتصف القرن

جانب من الواجهـــــة المزخرفة لمقهى فى طشقند.

سراج الدين نور الدينوف استاذ الحفر على الخشب الطاجيكى المعروف فـــى ورشته.

استاذ الحفر على المعدن اتاييف الحائز على لقب فنان الشعب لجمهورية تركمانيا، يصنع حليا من الذهب والفضة.

خياطات بمصنع بخـــارى للتطريز بالذهب.

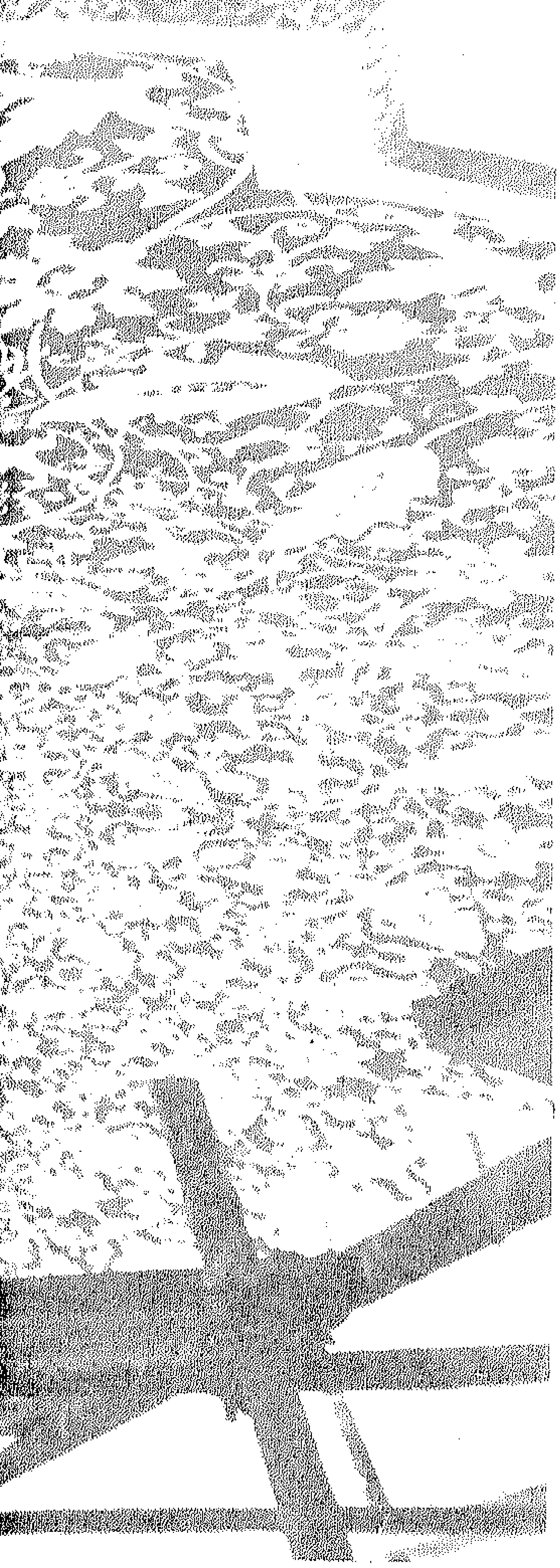

زخرفة طاقم من الاثاث
الشرقي.

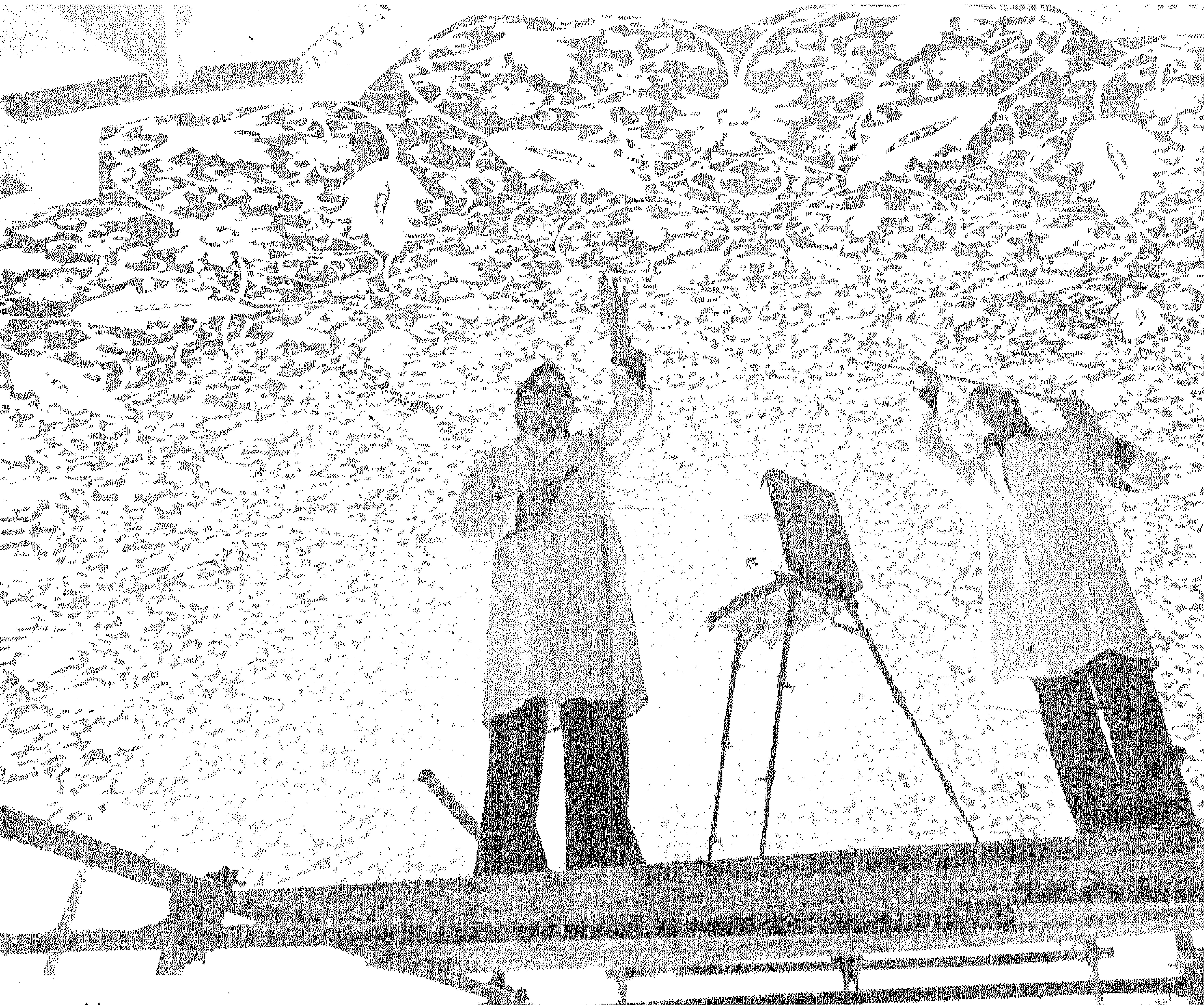

الفنانون يرممون زخـــارف ونقوش قديمة فى مدرسة تيلاكارى فى سمرقند.

ترميم فسيفساء جميلة على جدران مجموعة الاثـــار المعمارية الشهيرة فى ميدان ريجستان بسمرقند.

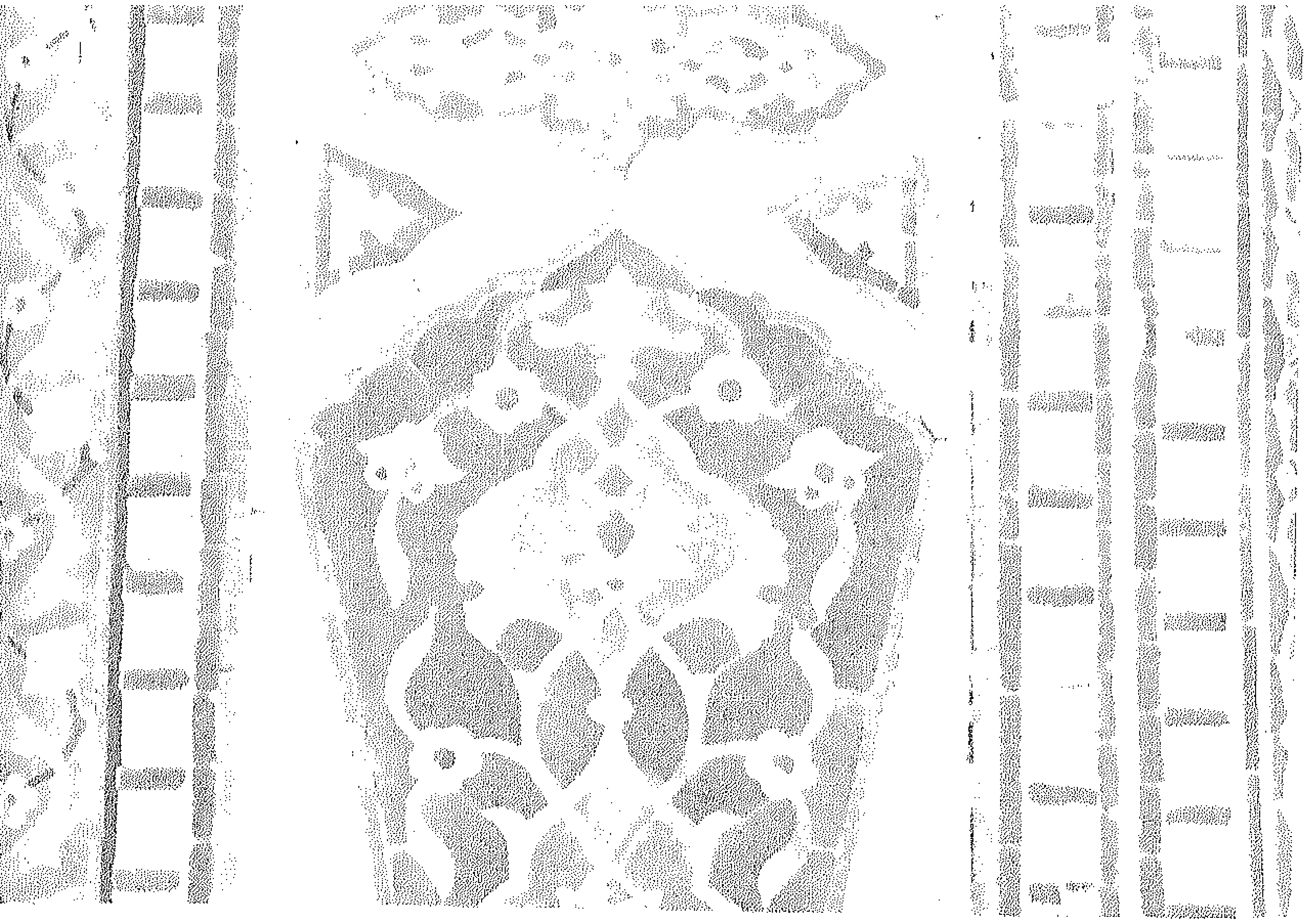

تفاصيـــل زخارف لمجموعة اضرحة شاه زنده.

الفن القديم للحفر علـى المعدن فى قرية كوبانشى.

التاسع عشر من مدينة أوراتيوب فى شمال طاجيكستان حيث نجد الخلفية البيضاء مشغولة تماما بازهار ذات ظلال مختلفة من اللون الاحمر مطرزة بالحرير. وبعديد من خيوط السدى تتشكل صفوف تعطى نموذجا لسطح مكمل.

وكانت معلقات الجدران الساحرة فى آسيا الوسطى منتجات شعبية صنعها حرفيون مجهولون، واعتزوا بها كمتاع يورث، و استخدمت ليس فقط لتزيين الجدران، وانما فرشت على الاسرة طوال النهار.

وبين معروضات متحف طشقند للفن سيرى الزائر قطيفة بخارى الفاخرة المنسوجة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكذلك الحرائر ذات الرسوم الكبيرة «المائعة» الشكل وذلك من تأثير التكنيك التالى: كانت الخيوط تصبغ فى عدد من الالوان — والاجزاء التى كانوا لا يريدون صباغتها تربط معا بشدة. ولكن بعض الصباغة كان يتسرب الى الخيوط المربوطة لكى تؤدى الى «سيوعة» الاشكال. وهذا النسيج يعرف باسم «أبر»، أو السحاب، لان الهدف كما يقولون كان تقليد انعكاس السحاب الذى يندفع فوق رؤوسنا فى الماء.

ويمكن للشعوب الاسلامية فى شمال القوقاز أن تفاخر بتراثها الفنى والمتنوع. ولا يستطيع المرء، فى الحقيقة، أن يتصور فنون وحرف داغستان دون مصنوعاتها الفضية التى ظلت حية، وهى تقليد يرجع تاريخه لاكثر من ٤٠٠٠ سنة.

وفى القرية الجبلية الصغيرة المعروفة باسم كوباتشى يتفوق كل شبابها فى شغل المعادن. ولم يكن لدى المؤلفين فى العصور الوسطى سوى الاعجاب بدروع كوباتشى وصناع السلاسل القوية. وخلال القرون طور عمال المعادن فى كوباتشى أسلوبهم الفريد.

وعندما تدخل الى أى بيت فى كوباتشى تجد غرفة مخصصة كمتحف. وسوف تنظر بدهشة عندما ترى أوان وصحون على الارفف، ومغارف وفناجين معدنية تتدلى على الجدران، وارضية السوداء من الطين الصفحى طليت تصدعاتها باللون الازرق البـــــزاهى، وسجاجيد المخملية، وصفوف الاباريق الكبيرة «الموشالى»، وجرادل برونزية منقوشة «نوكنوز». وكل فتاة يجب أن تحضر لزوجها المقبل «نوكنوز» كجزء من مهرها، وسوف ترى هناك كذلك مراجل برونزية ذات أرجل ثلاث ذات احجام مختلفة، تذكرنا حروفها العالية المزخرفة ومقابضها المستقيمة بالاوعية الاسكيثية، ومن المصادفة أن بعضها يرجع الى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وأخيرا نجد هناك قدورا فضية «كوتكا» وكيزان «كونية».

لقد قلنا من قبل ان الحرفيين الاساتذة فى كوباتشى تفوقوا فى صناعة وزخرفة الدروع. وفى المجموعة الرائعة للصلب البارد الفنى بزخرفته فى متحف جمهورية داغستان للدراسات الاقليمية فى ماخاشكالا نال الاعجاب سيف يرجع تاريخه المكتوب عليه الى العام ١٨٩٠، ومقبضه

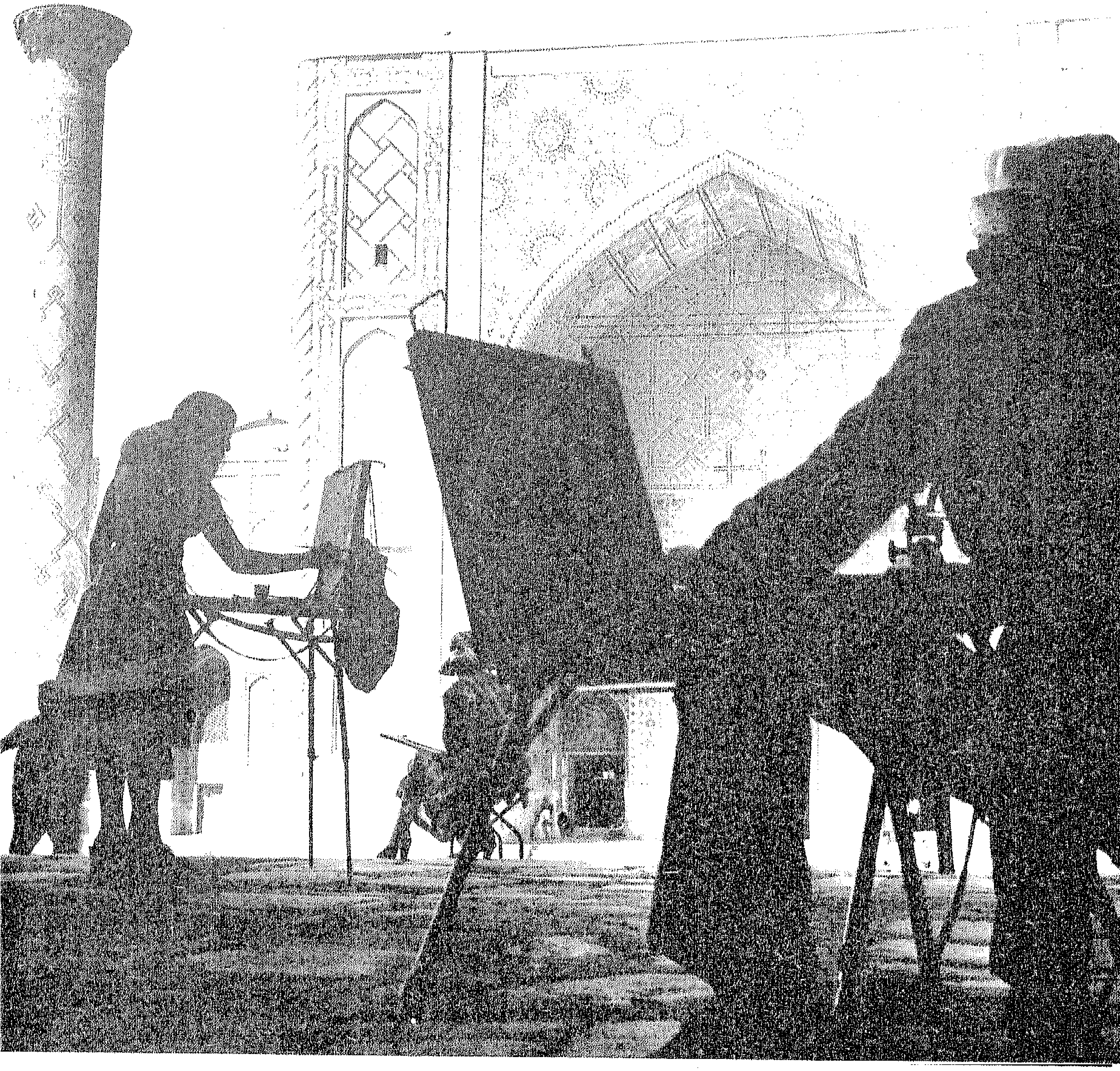

رسامون في سمرقند القديمة.

وغمده مغطيان برسوم محفورة بعمق. والغمد مرصع بقطع من العاج. وقد رسمت عليه وحدتان زخرفيتان كلاسيكيتان من كوباتشى «التوتا» المتماثلة «المارخارى» غير المتماثلة.

وحلى النساء الفضية التى قام بصنعها حرفيو كوباتشى الاساتذة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ذات جمال فريد، وبخاصة، الاساور المزينة برسوم كالعقد والمطعمة بالاسبنل والعقيق، ومما له جاذبية خاصة الاساور التعبانية المجدولة ذات الأطراف المنتفخة والمطعمة بالعقيق الاسود وبمجموعات دقيقة من الفيروز والمرجان. ونجد دقة الصناعة فى الخواتم الرنانة ذات الاحجار التى تجلب الحظ، والتى تكون فى الغالب حمراء، وعادة ما تلبسها العروس فى حفل زفافها.

ومصوغات كوباتشى معروضة بوفرة فى المتاحف ليس فقط فى ماخاشكالا بل وفى موسكو ومنها أباريق منقوشة بعناية وعلب للسجاير عليها رسوم محفورة، وكؤوس فضية محفورة وأباريق ومجموعات من الاحزمة المغطاة بالفضة.

ويشتهر بزخرفته الفاخرة قالب السكر المصنوع على شكل مرجل كوباتشى فى الازمنة القديمة.

وخلال أجيال عديدة اكتشف حرفيو كوباتشى طرقا بسيطة ولكنها معبرة للغاية لزخرفة مصنوعاتهم، لتضفى جمالا على بريق المعدن البارد واستخدموا قطع العاج ليزيدوا من زرقة المعدن، أو الخطوط الذهبية ليجعلوا له بريقا. والوحدات الزخرفية تتكون من خطوط بسيطة، ولكنها شاعرية وأنيقة.

* * *

وكما أشرنا من قبل، فان هذا العرض الموجز لا يفى حتى محاولة وصف كل جوانب الفنون والحرف الشعبية للمسلمين السوفيت، سواء كانت من الفخار أو المصنوعات الزجاجية أو نحت الخشب أو اللوحات الحجية، وذلك مجرد القليل منها. وكل هذه الفنون والحرف تدعمها الدولة بسخاء، ودليل على ذلك المعارض العديدة، ومجموعات المتاحف التى تزداد ثراء باستمرار، والتطبيقات العديدة المتنوعة التى يجدها الفن الشعبى فى الزخرفة الداخلية الحديثة.

Мухамеджан Мирзамухамедов,
Борис Езеев
СОКРОВИЩА ЧЕЛОВЕЧЕСКОГО ГЕНИЯ
на арабском языке
Цена 50 коп.
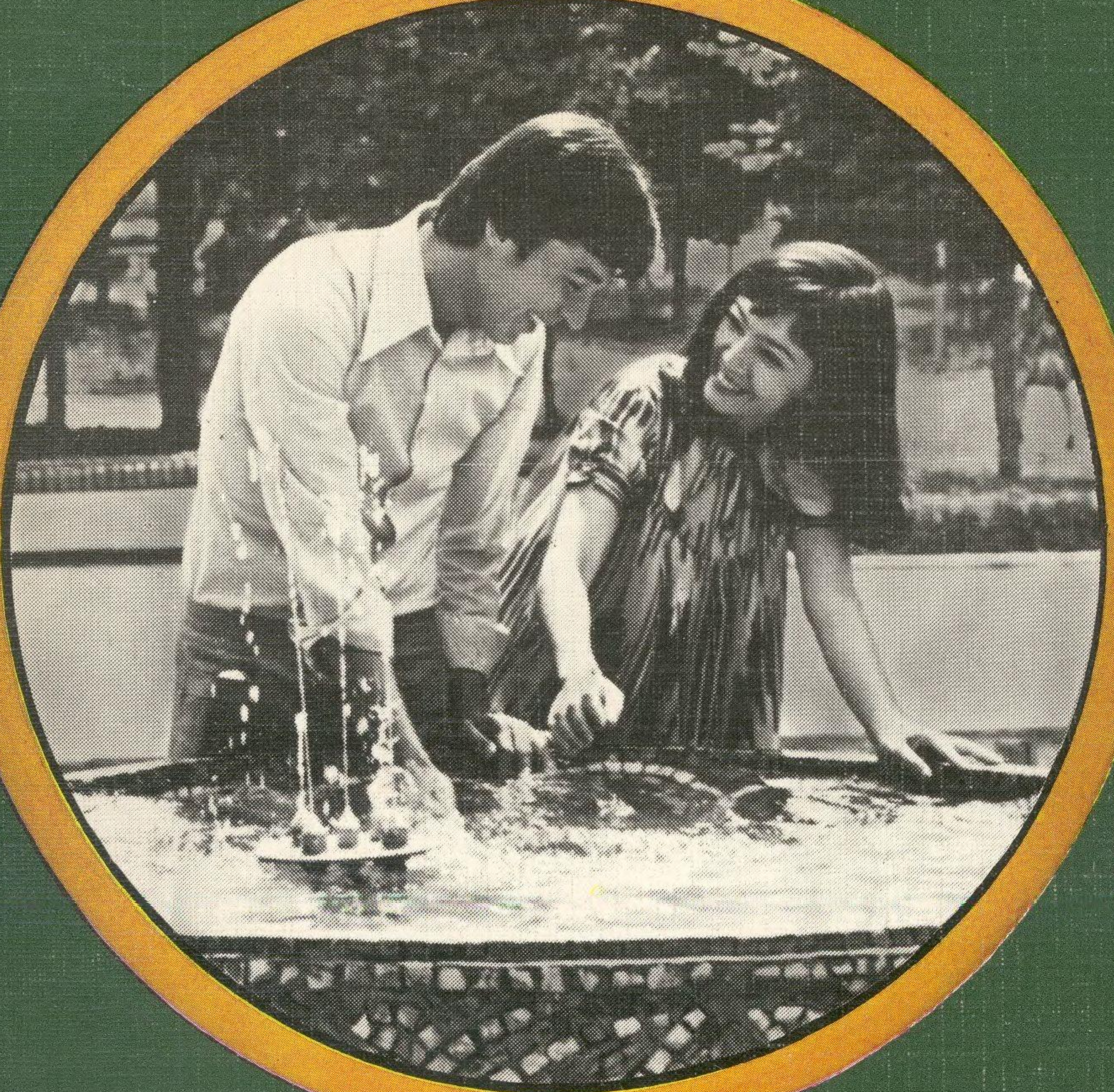
Издательство Агентства печати Новости